ميثاق بني إسرائيل والقلوب الغلف

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة: ٨٣ - ٨٨

أما تفسيرها بحسب:

*** ابن كثير:**

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣

يذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبها أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾النحل: ٣٦ وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولادهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ لقمان: ١٤ . وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾الإسراء: ٢٣ ، إلى أن قال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾الإسراء: ٢٦. وفي الصحيحن عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها))، قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين))، قلت: ثم أيّ؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)). ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله مَن أبر؟ قال: ((أمك))، ثم مَن؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((أباك؟ ثم أدناك ثم أدناك» وقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكد. وقيل: كان أصله ﴿ أَن لَّا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هود: ٢٦ فحذفت (أن) فارتفع ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، و﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

كما روي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي (ص) أنه قال: ((لا تحقرنّ من المعروف شيئاً وإن لم تجد أخاك بوجه منطلق)) يأمرهم بأن يقولوا للناس

حسناً، بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين الإحسان (الفعل) و(القولي) ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة وفقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا على عمد، بعد العلم به إلاَّ القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ النساء: ٣٦ الآية.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٨٤ - ٨٦

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله (ص) بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ كانوا في الجاهلية عبّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل (بنو قينقاع) و(بنو النضير) حلفاء الخزرج و(بنو قريظة) حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا

قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال (عليه الصلاة والسلام): ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ الآية. عن ابن عباس: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي (بنو قينقاع) ما كان من أسراهم في أيدي (الأوس) ويفتدي (النضير وقريظة) ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾؟ أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغني ـ نزلت هذه القصة. وقال السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الحطيم ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا

﴿مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾ والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق، ذمّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون في ما كتموه من صفة رسول الله (ص)، ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه، التي أخبرت بها الأنبياء قبله (عليه الصلاة والسلام)، واليهود ـ عليهم لعائن الله ـ يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم عليه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد، والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو (التوراة) فحرّفوها وبدّلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى:﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ المائدة: ٤٤ ، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾. قال السدي: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا، والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ المؤمنون: ٤٤

حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فيفنخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس ـ وهو جبريل (ع) ـ ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران: ٥٠ الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلاَّ لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؟

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية ما قال البخاري: عن أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله (ص) وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله (ص)، فقال رسول الله (ص): ((اللهم أيد حسّان بروح القدس كما نافح عن نبيك)). وفي بعض الروايات أن رسول الله (ص) قال لحسّان: ((اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك))، وفي شعر حسّان قوله:

وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

وعن ابن مسعود: أن رسول الله (ص) قال: ((إنَّ روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)). وحكى القرطبي عن مجاهد: القدس: هو الله تعالى، وروحه جبريل. وقال السدي: القدس البركة، وقال العوفي عن ابن عباس: القدس الطهر. وقال الزمخشري: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل

صدق، ووصفها بالقدس كما قال﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾النساء: ١٧١ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام والطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل كما قال في القرآن: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾الشورى: ٥٢ ، وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره. وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً؛ لأنهم حاولوا قتل النبي (ص) بالسم والسحر، وقد قال (ع) في مرض موته: ((ما زالت أكلة خيبر تعادّني فهذا أوان انقطاع أبهري)).

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي في أكنة: وقال ابن عباس: أي لا تفقه، وهي القلوب المطبوع عليها، وقال مجاهد: عليها غشاوة، وقال السدي: عليها غلاف وهو الغطاء فلا تعي ولا تفقه. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي: طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ معناه: لا يؤمن مننهم إلاَّ القليل، وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله: ﴿غُلْفٌ ﴾ تقول قلبي في غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شيء، وقرأ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾فصلت: ٥ وهذا الذي رجحه ابن جرير واستشهد بما روي عن حذيفة قال: ((القلوب أربعة)) فذكر منها: ((وقلبٌ أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر)). ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾النساء: ١٥٥ ، وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾النساء: ١٥٥ فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، وقيل: فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم

به محمد (ص). وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال:﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب: قلّما رأيت مثل هذا قط. تريد ما رأيت مثل هذا قط، والله أعلم.

*** الشيخ مغنية:**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ البقرة: ٨٣

اللغة: اليتيم من الناس من مات أبوه إلى أن يبلغ الحلم، وعن الأصمعي أن اليتيم من الحيوان من لا أم له، ومن الإنسان من لا أب له.

الإعراب: لا تعبدون إنشاء في صيغة الخبر، أي لا تعبدوا، وقد يأتي الأمر بصيغة الخبر أيضاً، مثل: تؤمنون بالله، أي آمنوا بالله، قال صاحب المجمع: ويؤكد ذلك أنه عطف عليه بالأمر، وهو قوله: وبالوالدين إحساناً. أي أحسنوا بالوالدين إحساناً، وقوله: وأقيموا الصلاة وتتضمن هذه الآية أموراً:

١ ـ البرّ بالوالدين: إن الله سبحانه قرن شكر الوالدين بشكره، وأوجب البر بهما، والإحسان إليهما، تماماً كما أوجب التعبّد له، ومن هنا أجمع الفقهاء قولاً واحداً على أن عقوق الوالدين من أعظم الكبائر، وأن العاق بهما فاسق لا تقبل له شهادة، وفي الحديث الشريف: «إن العاق بوالديه لا يجد ريح الجنة» والمراد بالإحسان للوالدين طاعتهما، والرفق بهما قولاً وعملاً.

٢ ـ القربى واليتامى والمساكين: لقد أوجبت الآية صلة الرحم، لصلته بالوالدين، كما أوجبت الحرص والمحافظة على اليتيم وأمواله على من كان ولياً أو وصياً عليه، وأيضاً أوجبت للفقير نصيباً في أموال الأغنياء.

٣ ـ أصل الصحة: إذا صدر من الإنسان عمل من الأعمال، أو قول من الأقوال يمكن حمله على وجه صحيح، وعلى وجه فاسد، فهل يحمل على الصحة،

أو على الفساد، أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيء إلا بدليل قاطع، ومثال ذلك أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدري هل هي زوجته أو أجنبية عنه، أو تسمع كلاماً، وأنت لا تدري: هل أراد به المتكلم النيل منك، أو لم يرد ذلك؟ وقد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك وأمثاله، واستدلوا فيما استدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ويقول علي أمير المؤمنين: ضع أمر أخيك على أحسنه.. ويقول الإمام جعفر الصادق: كذّب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسّامة أنه قال، وقال هو لك: إني لم أقل، فصدّقه وكذبهم. وهذا مبدأ إنساني بحت، لأنه يكرس كرامة الإنسان، ويؤكد علاقة التعاون والتعاطف بين الناس، ويبتعد بهم عما يثير الكراهية والنفور... وبهذا يتبين أن الإسلام لا يقتصر على العقيدة والعبادة. وأنه يهتم بالإنسانية وخيرها، ويرسم لها الطرق التي تؤدي بها إلى الحياة المثمرة الناجحة. ولكن الذين باعوا دينهم للشيطان استغلوا هذا المبدأ الإنساني، وانحرفوا به عن هدفه النبيل، وبرروا به أعمال القراصنة والمرابين.. وبديهة ـ كما أشرنا ـ أن مبدأ الحمل على الصحة لا ينطبق على أعمال السلب والنهب، والاحتيال والتضليل، وما إلى ذلك مما نعلم علم اليقين أنه من المحرمات والموبقات وإنما ينطبق على ما نحتمل فيه الصدق والكذب، والصحة والفساد.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٨٤ - ٨٦

اللغة: التظاهر التعاون، وفداء الأسير دفع العوض بدلاً عن إطلاقه.

الإعراب: لا تسفكون إنشاء بصيغة الخبر، مثل لا تعبدون في الآية السابقة، وأنتم مبتدأ وجملة تقتلون خبر، وهؤلاء منادى، ويجوز أن تكون تأكيداً لأنتم، كأنه قال: أنتم أنتم، كما تقول: أنت أنت مؤكداً بأنه لا أحد سواه.

تمهيد: لم ينته الحديث عن اليهود ومشاكلهم، والآتي كثير. والصورة التي نستخلصها لليهود من آيات القرآن أنهم يضاعفون النشاط لنشر الفساد في الأرض، ويتمادون في الغي كلما دعاهم داعٍ إلى الهداية والاستقامة حتى كأنهم فطروا على معصية الله ومخالفة الحق تأمرهم توراتهم بعبادة الله، فيعبدون العجل، ويقول لهم موسى: هذه التوراة من عند الله، فيقولون له: أرنا الله جهرة.. ويقول لهم: اذكروا نعمة الله عليكم، واسألوه العفو والصفح. فيسخرون ويهزؤون.. وإذا كان هذا شأنهم مع موسى الكليم (ع)، وهو من بني إسرائيل فكيف يكون حالهم مع غيره؟ لقد طردهم الملك ادوار الأول من إنكلترا، ونكل بهم هتلر في ألمانيا بعد الاختبار والعلم بحقيقتهم، وأنهم مستحقون لأكثر من ذلك.

وعلى أية حال، فإن من جملة المواثيق التي أخذها الله على اليهود في التوراة أن لا يقتلوا أنفسهم، أي لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرجوا أحداً من دياره، واليهود لا ينكرون هذه المواثيق، بل ليس في وسعهم أن ينكروها، لأنها موجودة في التوراة التي يؤمنون بصدقها، وبأنها وحي من الله.. ومع ذلك خالفوها عن عمد وتصميم، فقامت الحجة عليهم، وناقضوا أنفسهم وبهذا التمهيد يتضح المراد من الآيات:

المعنى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ عاد سبحانه إلى بني إسرائيل، يذكرهم بالعهود والمواثيق التي قطعت على لسان موسى والأنبياء من بعده، ومن هذه المواثيق أن لا يريق بعضهم بعضاً من ديارهم. وقوله تعالى دماءكم وديارهم تماماً

كقوله: إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم، أي ليسلم بعضكم على بعض.

﴿ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي أقررتم بالميثاق، وشهدتم بأنفسكم على أنفسكم.

وتسأل: إن الإقرار والشهادة على النفس شيء واحد، فكيف صح عطف الشيء على نفسه؟

الجواب: يجوز من باب التأكيد، ويجوز أيضاً أن يكون المراد بالإقرار إقرار السلف من اليهود، وبالشهادة شهادة الخلف بأن السلف قد أقر، واعترف بالميثاق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي أنكم بعد أن أقررتم بالميثاق نقضتموه، وقتل القوي منكم الضعيف، وأخرجه من دياره.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تتظاهرون، والتظاهر هو التعاون، وتشير الآية إلى انقسام اليهود وتعاون كل فريق منهم مع العرب ضد الفريق الآخر من اليهود..

واختصاراً إن اليهودي لا يرى مانعاً أن يقتل يهودياً مثله، بل ويتعاون مع العرب على قتله، ولكن إذا أسر العرب يهودياً تحركت عاطفة اليهودي الآخر، ودفع فدية للآسر، وفك الأسير، وهو من ألد أعدائه. فاليهودي يحلّ قتل اخيه اليهودي، وتشريده، ولكنه يحرم أسره.. وكان اليهود يعتذرون عن هذا التهافت بأن التوراة أمرتهم بفداء أسرى اليهود إذا أسروا، فردّ الله عليهم بأن التوراة أيضاً أمرتهم بفداء أسرى اليهود إذا أسروا، فرد الله عليهم بأن التوراة أيضاً أمرتهم بأن لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرجه من دياره، فكيف عصيتم التوراة في القتل، وأطعتموها بالفداء من الأسر؟

وبهذا تجد تفسير قوله تعالى:﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ﴾ والذي كفروا به هو النهي عن القتل،

والتظاهر بالإثم والعدوان، والاخراج من الديار، والذي آمنوا به هو الفداء من الأسر وهذا عين اللعب والاستهزاء بالدين.

وتسأل: إن المحرم عليهم هو القتل والتظاهر والإخراج، فلماذا ذكر الله سبحانه خصوص الإخراج في هذه الآية؟

الجواب: أجل، إنها جميعاً محرّمة، ولكن الله خصّ الإخراج بالذكر ثانية لتأكيد التحريم لأن شر الإخراج من الديار يطول ويمتد بخلاف القتل على حد تعبير بعض المفسرين.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يطلق الجزاء على الخير والشر، ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ الإنسان: ١٢ ومن الثاني: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ النساء: ٩٣. والخزي الفضيحة والعقوبة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إن الله سبحانه لم يحرم بهذه الآية ولا بغيرها الطعام الطيب، واللباس الفاخر، وإنما هدّد من باع دينه بدنياه، وعاش على البغي والاستغلال. إن الله ينهى عن الفساد في الأرض، ولا ينهى عن زينة الحياة ونعيمها.. بل إنه جلّ وعز أنكر أشد الإنكار على من حرم التنعم والتلذذ في هذه الحياة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الأعراف: ٣٢ أي إنها حلال لمن اكتسبها من حل وحرام لمن ابتغاها عوجاً من السلب والنهب، والغش والإحتيال.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

اللغة: قفينا أصله من القفا، يقال: قفوت فلاناً إذا صرت خلف قفاه، والمراد به هنا أن الله أرسل الأنبياء الواحد تلو الآخر، ومريم بالعبرية معناها الخادم، لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس، والمراد بالروح القدس جبرائيل، ويطلق عليه أيضاً الروح الأمين، وغلف جمع أغلف، أي عليها غشاوة، والمراد أنهم لا يفقهون.

الإعراب: قليلاً قائم مقام المفعول المطلق، أي إيماناً قليلاً يؤمنون، وجيء بها لمجرد التوكيد.

المعنى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي أعطينا موسى التوراة، ثم أرسلنا من بعده رسولاً بعد رسول.. وقيل: لم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبياء بني إسرائيل إلا وكان فيه نبي مرسل، أو أنبياء متعددون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وفي تفسير الرازي، وأبي حيان الأندلسي أن من هؤلاء الرسل: يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشيعاء وارمياء وعزير وحزقيل واليسع ويونس وزكريا ويحيى.

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ عيسى (ع) هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وبينه وبين موسى حوالى أربعة عشر قرناً.. والمراد بالبينات الدلائل والمعجزات التي دلت على صدقه ونبوته، أما روح القدس فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه جبرائيل، ونميل نحن إذا لم يوجد نص على التعيين، نميل إلى أن المراد به الروح المقدسة، وأن الله سبحانه قد وهب عيسى روحاً نقية قوية أهّلته للرسالة الإلهية، والتوسط بين الله وعباده، وقيادتهم في طريق الخير والهداية.

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ الخطاب عام لجميع اليهود، لأنهم أمة واحدة، وعلى طبع واحد، ولأن من رضي عن الظالم فقد شاركه في ظلمه.

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد (ص) ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى.. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. أي قال اليهود للنبي: إن على قلوبنا غلافاً يمنعها من تفهم دعوتك والاستماع إليها، فهو تماماً كهذه الآية: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾فصلت: ٥.

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي لم يؤمن من اليهود بمحمد (ص) إلا القليل، مثل عبدالله بن سلام وأصحابه، واختار صاحب مجمع البيان أن معنى ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنه ما آمن أحد منهم إطلاقاً لا قليلاً ولا كثيراً، يقال: قلما يفعل، بمعنى لا يفعل البتة، والأول أصح، لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾النساء: ١٥٥.

وينبغي الوقوف قليلاً عند قوله تعالى:﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ﴾المائدة: ٧٠ ... إن هذه الآية الكريمة كما تضمنت التوبيخ لمن يعصي الرسل، ويرفض الحق إذا لم يوافق هواه فإنها أيضاً تتضمن التوبيخ لمن يتساهل مع الناس، ولا يجابههم بكلمة الحق تزلفاً إليهم، وطمعاً في المكانة عندهم. إن المصلح الصادق يقول الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، لأن هدفه الأول والأخير هو مرضاة الله وحده، ومن أجلها يستشهد ويضحي بالنفس، ويقدم للأجيال مثلاً أعلى في اتباع الحق والجهر به، أما المزيف الكاذب فيستهدف مرضاة الناس لتروج بضاعته عندهم، قال أمير المؤمنين (ع): لا تسخط الله برضا أحد من خلقه، فإن في الله خلفاً عن غيره، وليس من الله خلف في غيره.

*** سيد قطب:**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ

هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابٖۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

البقرة: ٨٣ - ٨٦

لقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه وميثاق الله مع بني إسرائيل، هو ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه.. أن ذلك الميثاق قد تضمّن القواعد الثابتة لدين الله هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضاً، فتنكروا لها وأنكروها.

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألاّ يعبدوا إلا الله القاعدة الأولى للتوحيد المطلق.. وتضمّن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين. وتضمّن خطاب الناس بالحُسنى وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كذلك تضمّن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة. وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه.

ومن ثم تتقرر حقيقتان:

أ ــ هي وحدة دين الله وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله.

ب ـ هي مقدار التعنّت في موقف اليهود من هذا الدين، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وهكذا تتكشّف بعض أسرار الالتفات في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب!

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ البقرة: ٨٤

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾

لقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيّان أشدّ ما يكون حيّان من العرب عداء. وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحيّ وذاك من المشركين.. كان «بنو القينقاع» و«بنو النضير» حلفاء «الخزرج»، وكان «بنو قريظة» حلفاء «الأوس». فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهود أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر (وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم)، وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم (هذا أيضاً محرم عليهم بنص ميثاق الله معهم) ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء، وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته.

هذا التناقض هو الذي يواجههم به القرآن، وهو يسألهم في استنكار: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

هذا هو نقيض الميثاق الذي يتهدّدهم عليه بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشدّ في الآخرة مع التهديد الخفي بأنّ الله ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وكذبوا إذن في دعواهم أن لن تمسّهم النار إلاّ أياماً معدودة فهؤلاء هم هناك: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفه دينهم وكتابهم فإن انقسامهم فريقين وانضمامهم إلى حلفين، هي خطة إسرائيل التقليدية في إمساك العصا من الوسط، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال، وضمان صوالح اليهود في النهاية سواءٌ النصر هذا المعسكر أم ذاك!

وهي خطة من لا يثق بالله ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كلّه على الدهاء ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد. والإيمان يحرّم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية فلا مصلحة إلاّ في اتباع دينهم ولا وقاية إلاّ بحفظ عهدهم مع ربهم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧

لقد كانت حجّة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم.. فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم

وشرائعهم، ويُثبت أنّهم على موقفهم كلّما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

في محاولة منهم لإخضاع الهُداة والشرائع للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت، مصدر لا يميل مع الهوى ولا تغلبه النزوة، وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قصّ الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذّرهم من الوقوع في مِثله حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكّموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً، ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل من الفِرقة والضعف والذلّة والهوان والشقاء والتعاسة، إلاّ أن يستجيبوا لله ورسله، وإلاّ أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكُتبه، وإلاّ أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

إن الأسلوب هنا يعنُف ويشتدّ، ويتحوّل إلى صواعق وحمَم.. إنّه يجبهم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا، ويُجرّدهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون لها استكبارهم عن الحق وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدَهم أن يؤتي الله أحداً من فضله. جزاء موقفهم الجحودي المُنكر من الإسلام ورسوله الكريم.

قالوا: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قالوا: إن قلوبنا مغلّفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيساً لمحمد (ص) وللمسلمين من دعوتهم إلى هذا الدين، أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول (ص) ويقول الله رداً على مقولتهم: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي أنه طردَهم وأبعدَهم عن الهدى بسبب كفرهم؛ فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم أو أن هذه حالهم: إنّهم كفروا فقلما يقع الإيمان، حالة لاحقة بهم يذكّرها تقريراً لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفّق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم وقد جاءهم بكتاب مصدّق لما معهم!

*** السيد فضل الله:**

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

البقرة: ٨٣ - ٨٦

معاني المفردات:

﴿ مِيثَٰقَ ﴾: الميثاق أخذ العهد ولا يكون إلاّ بالقول.

﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

﴿ تَوَلَّيْتُمْ ﴾: أدبرتم وأعرضتم.

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾: مدبرون.

﴿ تُفَٰدُوهُمْ ﴾: فاداه مفاداه وفداء: أطلقه وأخذ فديته، وقيل: المفاداة أن تدفع رجلاً وتأخذ رجلاً، والفدى أن تشتريه: وقيل: هما واحد.

﴿ خِزْيٌ ﴾: ذل وهوان.

ـ فقد أراد الله من بني إسرائيل أن يوحّدوه فلا يعبدوا غيره، وأن تكون علاقاتهم بوالديهم وبأقربائهم وبأيتامهم ومساكينهم مبنيّة على الإحسان.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الذي أردناه الأساس لعلاقتهم بالله في سلوكهم العملي في الحياة ليعرفوا أن وجودهم فيها يساوي التزامهم بالتعاليم الإلهية كعهد وثيق بينهم وبين الله.

﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وهذا هو التوحيد الذي يُمثّل قاعدة الفكر في العقل وحركة الإحساس في القلب، لتكون حياتهم خط استقامة في خط التوحيد، فلا شرك في العقيدة ولا تعددية في العبادة والطاعة.

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ فهما السبب المباشر لوجود الإنسان، وعليه مبادلتهما إحساناً بإحسان.

﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الذين يُمثّلون الرحم القريب الذي هو المجتمع الأقرب للمجتمع الإنساني الأول الذي يتحمل الإنسان مسؤولية رعاية أفراده بالإحسان.

﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ الذين فقدوا الآباء الذين يقومون برعاية شؤونهم وحمايتهم من كل خطر أو سوء وتوجيههم للحياة الطيبة الكريمة ممّا يفرض على

المجتمع أن يقوم بسدّ هذا الفراغ وتعويض هذا النقص النفسي والواقعي.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين يعانون من الحاجة المادية ويسقطون تحت تأثيرها في دائرة المستكبرين ليفقدوا إنسانيتهم أمام ذلك الأمر الذي يريد الله فيه للناس تدبير أمرهم والإقامة بإعالتهم وسدّ حاجتهم، بالطريقة التي تحفظ لهم كرامتهم.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهذا هو خط التعامل مع الآخرين على مستوى حركة العلاقات الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بحيث تكون الكلمة الطيبة والقول الحسن والأسلوب الجميل، عناوين إنسانية في انفتاح الإنسان على الإنسان الآخر، لأن القول الحسن في اللفظ والمعنى يفتح القلب وينعش الروح، ويقرب الإحساس، ويقوى الروابط بين الناس.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي وسيلة القرب إلى الله.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والزكاة هي المضمون الإنساني للتكافل الاجتماعي في حركة العطاء في الشخصية المتفاعلة مع الواقع الاجتماعي في الحاجات الإنسانية العامة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الوفاء بالعهد والاستجابة للأمر الإلهي في ذلك كله.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ في الجانب السلبي من السلوك.

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ لأن الله جعل للدماء حرمتها وللنفوس قداستها في الواقع الإنساني فلا حق لإنسان في إزهاق روح إنسان آخر وسفك دمه، إلا بالحق الذي يُمثّل التشريع الإلهي في موارد الرخصة في ذلك.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لأن الله أراد للإنسان أن يكون آمنا في بيته حراً في اختيار البقاء فيه، فلا سلطة لأحد في إخراجه منه إلاّ بالحق في دائرة التشريع الإلهي.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ على أنفسكم بذلك ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على ما أخذه الله

من الميثاق على آبائكم وعليكم من خلالهم، مما يفرض عليكم الالتزام به كما هو الأمر بالنسبة إليهم.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فيقتل بعضكم بعضاً، وهو نقض للعهد المأخوذ عليكم وفي التعبير بـ«أنفسكم» إيحاء بأنّ المجتمع يُمثّل وحدة قائمة بذاتها، ممّا يجعل الاعتداء على أي فرد منه اعتداء على النفس كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾النور: ٦١ أي ليسلم بعضكم على بعض.

﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾

أي تتعاونون فيما بينكم في تجمع عدواني لإخراج بعض الناس في مجتمعكم من ديارهم لتشردوهم، وهذا ما يوحي بأنّكم لا تلتزمون الوحدة المجتمعية القائمة على أساس التضامن والتعاون والاحترام.

﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ ﴾ فإذا رأيتموهم أسارى لدى جماعة أخرى من غير اليهود من أعدائكم، فإنكم تفادونهم وتتحملون مسؤولية تحريرهم منهم، وهذا ما يوحي بالتزامكم بهم كجماعة منكم تحملون مسؤوليتها الأمنية.

﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ فقد جاء التحريم من الله في مسألة إخراجهم فكيف تجمعون بين العدوان الذاتي عليهم في داخل مجتمعكم ومفاداتهم وتحريرهم من غيركم؟!

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ممّا لا ينسجم مع الالتزام الإيماني بالكتاب لله، الذي يفرض الإيمان به في جميع أحكامه، باعتبار أنه الوحي الصادر من الله.

﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ مما يفرضه هذا الواقع من هزيمتكم وانقسامكم وتعرّضكم للإذلال من قبل الآخرين من المسلمين وغيرهم، عندما تتعرضون للإخراج من دياركم أو لفرض الجزية

عليكم.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ جزاءً لانحرافكم عن الحق، وعدوانكم على أهله بعد إقامة الحجة عليكم من خلال رسوله ورسالته.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فهو المُطلّع عليكم في كل سرّكم وعلانيتكم والحافظ لكل نشاطاتكم ليحاسبكم عليها ويجازيكم بها.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ فاستبدلوا الباقي الفاني، ورضوا بالعرض المحدود الزائل من المال والجاه الذات الصغيرة، بدلاً من النعم الكبيرة الواسعة الخالدة والرضوان الإلهي العظيم.

﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ لأنهم أصروا على العناد والاستكبار على الحق.

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ لأن الآخرة ليست فرصة الذين ينتصرون لأنفسهم من عذاب الله بعلاقاتهم البشرية الدنيوية، لأنه اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

البقرة: ٨٧ - ٨٨

معاني المفردات:

﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾: أصله من القفا، يقال: فلاناً إذا صِرت خلف قفاه.

﴿ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾: جمع بيّنة، وهي الدليل والحجة.

﴿ وَأَيَّدْنَـٰهُ ﴾: قوّيناه.

﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾: جبرائيل، ويطلق عليه الروح الأمين.

﴿ غُلْفٌۢ ﴾: جمع أغلف، أي عليها غشاوة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧

وهنا يتبادر السؤال: ما هو موقف اليهود من الأنبياء؟ إن القرآن الكريم يُجمّل القضية في هذه الآية التي يتعرّض فيها للنبوات من لدن موسى الذي جاء وبيده كتاب الله، مروراً بالرسل الذين جاؤوا من بعده وانتهاءً بعيسى الذي أرسله الله ومعه البيّنات التي تثبت رسالته ونبوّته وأيده بروح القدس. إنّ الموقف الذي يحكُم سلوكهم من كل نبي هو موافقته لشهواتهم وأطماعهم وأهوائهم أو عدم موافقته لذلك، فإذا لم يُحقق لهم ما يريدون ولم يوافق على ما يشتهون، فإنهم يستكبرون عليه بما يملكون من جاه ومال وقوة، ومن تاريخ رسالي، ومن كتاب سماوي يتبجحون بالانتماء إليه... ويُعبِّرون عن ذلك بالتكذيب تارة لبعض الأنبياء الذين لا يستطيعون قتلهم نتيجة الظروف الموضوعية الخاصة، ممّا يدخل في حساب القوة الذاتية للنبي لكثرة قومه كما في قوم شعيب، وبالقتل أخرى للأنبياء الذين لا يملكون أي نوع من أنواع القوّة التي تمنحهم الحصانة في نظر بني إسرائيل، وكأن القرآن يريد أن يعطي الموقف الذي يقفه اليهود من النبي محمد (ص) بُعداً تاريخياً يدخل في حساب تكوين الشخصية، وفي العقدة المتأصلة التي يعاني منها هذا الشعب بشكل عام من الأنبياء ورسالاتهم.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ أي مغلقة عن وعي الأفكار والدعوات والتعاليم التي يدعون إليها، وهذا ما كانوا يواجهون به الأنبياء الذين يطلبون إليهم الفهم والتأمل في ما يقدم إليهم من براهين وحجج وآيات، فكان رد الفعل لديهم تظاهرهم بعدم الفهم أو بعدم القدرة على الإدراك لأن قلوبهم لا تملك الذكاء الذي تستطيع من خلاله الوصول إلى إبعاد القضية. وقد يكون هذا الزعم

هروباً من الدخول في عملية الحوار، وقد يكون استهزاءً وسخرية بالنبي عندما يقابلونه بهذا المنطق، الذي يجعله حائراً لا يدري كيف يواجه الموقف الجديد الذي لا يحقق أي صدى لصوته، وهذا ما جعل التعليق القرآني عليهم عنيفاً قاسياً، لأنهم لا ينطلقون من مواقع صحيحة.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾فقلوبهم كقلوب بقية الناس، وأفكارهم كأفكارهم في إمكان التقائها بالحقيقة ووعيها للمفاهيم التي تقدم إليها، وقدرتها على الدخول في عملية الحوار والمناقشة ولكنهم فضلوا الكفر على الإيمان ولما لم يجدوا حجّة على موقفهم الكافر لجأوا إلى هذا المنطق ليبرروا ذلك، فأبعدهم الله عن ساحته وهذا معنى﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم لا يردون الإيمان.

***الطبري:**

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ البقرة: ٨٣

قد دلّلنا في ما مضى من كتابنا هذا على أن «الميثاق» «مفعال» من «التوثق باليمين» ونحوها من الأمور التي تؤكد القول. فمعنى الكلام إذًا: واذكروا أيضاً يا معشر بني إسرائيل، إذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله، كما: حدثني به ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثني ابن إسحاق قال، حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أوعكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي ميثاقكم ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ عطف على موضع «أن» المحذوفة في ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. فكان معنى الكلام: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحساناً.

فإن قال قائل: وما ذلك «الإحسان» الذي أخذ عليهم وبالوالدين الميثاق؟ قيل: نظير ما فرض الله على أمتنا لهما من فعل المعروف لهما، والقول الجميل، وخفض جناح الذل رحمة بهما، والتحنن عليهما، والرأفة بهما، والدعاء بالخير لهما، وما أشبه ذلك من الأفعال التي ندب الله عباده أن يفعلوا بهما.

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾

يعني بقوله: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وبذي القربى أن يصلوا قرابته منهم ورحمه. و«القربي» مصدر على تقدير «فعلى»، من قولك، «قربت مني رحم فلان قرابة وقربي وقرباً»، بمعنى واحد. وأما «اليتامى». فهم جمع «يتيم»، مثل «أسير وأسارى». ويدخل في اليتامى الذكور منهم والإناث. ومعنى ذلك: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وحده دون من سواه من الأنداد، وبالوالدين إحسانا، وبذي القربي: أن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقه، وباليتامى: أن تتعطفوا عليهم بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تؤتوهم حقوقهم التي ألزمها الله أموالكم. و«المسكين»، هو المتخشع المتذلّل من الفاقة والحاجة، وهو «مفعيل» من «المسكنة». و«المسكنة» هي ذل الحاجة والفاقة.

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

وأما تأويل القول الحسن الذي أمر الله به الذين وصف أمرهم من بني إسرائيل في هذه الآية، أن يقولوه للناس، فهو ما:

حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمرهم أيضاً بعد هذا الخلق: أن يقولوا للناس حسناً: أن يأمروا بـ«لا إله إلا الله» من لم يقلها ورغب عنها، حتى يقولوها كما قالوها، فإن ذلك قربة من الله جل ثناؤه. وقال الحسن أيضاً، لين القول، من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم،

وهو ممّا ارتضاه الله وأحبه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. قد بينا في ما مضى قبل، معنى «الزكاة» وما أصلها.

وأما الزكاة التي كان الله أمر بها بني إسرائيل الذين ذكر أمرهم في هذه الآية، فهي ما:-

حدّثنا به أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، قال: إيتاء الزكاة، ما كان الله فرض عليهم في أموالهم من الزكاة، وهي سنة كانت لهم غير سنة محمد (ص). كانت زكاة أموالهم قربانا تهبط إليه نار فتحملها، فكان ذلك تقبله. ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبل، وكان الذي قرب من مكسب لا يحلّ: من ظلم أوغشم، أوأخذ بغير ما أمره الله به وبينه له.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾. وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم فخالفوا أمره في ذلك كلّه، وتولّوا عنه معرضين، إلاّ من عصمه الله منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه.

وقال بعضهم: عنى الله جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله (ص)، وعنى بسائر الآية أسلافهم. كأنه ذهب إلى أن معنى الكلام: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾: ثم تولى سلفكم إلا قليلاً منهم، ولكنه جعل خطاباً لبقايا نسلهم على ما ذكرناه فيما مضى قبل ثم قال: وأنتم يا معشر بقاياهم معرضون أيضاً عن الميثاق الذي أخذ عليكم بذلك، وتاركوه ترك أوائلكم.

وقال آخرون: بل قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾، خطاب لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص) من يهود بني إسرائيل، وذم لهم بنقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وتبديلهم أمر الله، وركوبهم معاصيه.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ البقرة: ٨٤

قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ في المعنى والإعراب نظير قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ ﴾. وأما «سفك الدم»، فإنه صبّه وإراقته.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾؟ وقال: أوكان القوم يقتلون أنفسهم ويخرجونها من ديارها، فنهوا عن ذلك؟ قيل: ليس الأمر في ذلك على ما ظننت، ولكنهم نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضاً. فكان في قتل الرجل منهم الرجل قتل نفسه، إذ كانت ملتهما بمنزلة رجل واحد. كما قال (عليه السلام): «إنما المؤمنون في تراحُمهم وتعاطفهم بينهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾، أي: لا يقتل الرجل منكم الرجل منكم، فيقاد به قصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً نفسه، لأنه كان الذي سبب لنفسه ما استحقت به القتل. فأضيف بذلك إليه، قتل ولي المقتول إياه قصاصاً بوليه. كما يقال للرجل يركب فعلاً من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيت هذا على نفسك».

اختلف أهل التأويل فيمن خوطب بقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

فقال بعضهم: ذلك خطاب من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين

ظهراني مهاجر رسول الله (ص) أيام هجرته إليه، مؤنباً لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها، فقال الله تعالى لهم: ﴿ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ ﴾، يعني بذلك، إقرار أوائلكم وسلفكم، ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ على إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم، بأن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتصدقون بأن ذلك حق من ميثاقي عليهم. وممن حُكي معنى هذا القول عنه، ابنُ عباس.

وقال آخرون: بل ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن أوائلهم، ولكنه تعالى ذكره أخرج الخبر بذلك عنهم مُخرج المخاطبة، على النحو الذي وصفنا في سائر الآيات التي هي نظائرها، التي قد بينا تأويلها في ما مضى. وتأولوا قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾، على معنى: وأنتم شهود.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب عندي: أن يكون قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ خبراً عن أسلافهم، وداخلاً فيه المخاطبون منهم، الذين أدركوا رسول الله (ص)، كما كان قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾خبراً عن أسلافهم، وإن كان خطابا للذين أدركوا رسول الله (ص). لأن الله تعالى أخذ ميثاق الذين كانوا على عهد رسول الله موسى (ع) من بني إسرائيل على سبيل ما قد بيّنه لنا في كتابه فألزم جميع من بعدهم من ذريتهم من حكم التوراة، مثل الذي ألزم منه من كان على عهد موسى منهم. ثم أنّب الذين خاطبهم بهذه الآيات على نقضهم ونقض سلفهم ذلك الميثاق، وتكذيبهم ما وكدوا على أنفسهم له بالوفاء من العهو د، بقوله: ﴿ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾. فإذْ كان خارجاً على وجه الخطاب للذين كانوا على عهد نبينا (ص) منهم، فإنه معني به كل من واثق بالميثاق منهم على عهد موسى ومن بعده، وكل من شهد منهم بتصديق ما في التوراة. لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بقوله: ﴿ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ وما أشبه ذلك من الآي بعضهم دون بعض. والآية محتملة أن يكون أريد بها جميعهم. فإذْ كان ذلك، فليس لأحد أن يدعي أنه أريد بها بعض منهم دون

بعض. وكذلك حكم الآية التي بعدها، أعني قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية. لأنه قد ذكر لنا أن أوائلهم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرهم الذين أدركوا عصر نبينا محمد (ص).

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الاية نحو اختلافهم فيمن عني بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. ذكر اختلاف المختلفين في ذلك: حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمد بن إسحق قال حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ إلى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم وتخرجوهم من ديارهم معهم قال: أنّبهم الله على ذلك من فعلهم وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين: طائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخزرج والنضير وقريظة حلفاء الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج، حرب خرجت بنوقينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنةً ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ولا حراماً ولا حلالاً. فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذا به بعضهم من بعض يفتدي بنو قينقاع ما كان

أسراهم في أيدي الأوس وتفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلون ما أصابو ا من الدماء وقتلى من قتلوا منهم في ما بينهم مظاهرة لآهل الشرك ويقول الله تعالى ذكره حين أنّبهم بذلك: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

أي: تفادونه بحكم التوراة وتقتلونه وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض من عرض الدنيا. ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة.

﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ ﴾ فليس لمن قتل منكم قتيلاً فكفر بقتله إياه بنقض عهد الله الذي حكم به عليه في التوراة وأخرج منكم فريقاً من ديارهم مظاهراً عليهم أعداءهم من أهل الشرك ظلماً وعدواناً وخلافاً لما أمره الله به في كتابه الذي أنزله إلى موسى جزاء يعني بالجزاء: الثواب وهو العوض ممّا فعل من ذلك والأجر عليه ﴿ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ والخزي: الذل والصغار يقال منه: خزي الرجل يخزى خزيا ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني: في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

ثم اختلف في الخزي الذي أخزاهم الله بما سلف من معصيتهم إياه.

فقال بعضهم: ذلك هو حكم الله الذي أنزله إلى نبيه محمد (ص): من أخذ القاتل بمن قتل والقود به قصاصا والانتقام للمظلوم من الظالم.

وقال آخرون: بل ذلك هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم ذلّة لهم وصغاراً.

وقال آخرون: بل ذلك الخزي الذي جوزوا به في الدنيا: إخراج رسول الله (ص) بني النضير من ديارهم لأول الحشر وقتل مقاتلة قريظة وسبي ذراريهم،

فكان ذلك خزيا في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾

يعني بقوله: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ويوم تقوم الساعة يُردّ من يفعل ذلك منكم بعد الخزي الذي يحلّ به في الدنيا جزاء على معصية الله إلى أشد العذاب الذي أعد الله لأعدائه.

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وتأويل قوله: وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بل هو مُحصٍ لها وحافظها عليهم حتى يجازيهم بها في الآخرة يخزيهم في الدنيا فيذلهم ويفضحهم.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين أخبر عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب فيفادون أسراهم من اليهود ويكفرون ببعض فيقتلون من حرّم الله عليهم قتله من أهل ملّتهم ويخرجون من داره من حرّم الله عليهم إخراجه من داره نقضاً لعهد الله وميثاقه في التوراة إليهم. فأخبر جل ثناؤه أن هؤلاء هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء، وأهل الجهل والغباء من أهل ملّتهم وابتاعوا المآكل الخسيسة الرديئة فيها بالإيمان الذي كان يكون لهم به في الآخرة لوكانوا أتوا به مكان الكُفر والخلود في الجنان، وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها عوضاً من نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين فجعل حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله ثمنا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا.

ثم أخبر الله جل ثناؤه أنهم إذ باعوا حظوظهم من نعيم الآخرة بتركهم طاعته وإيثارهم الكفر به والخسيس من الدنيا عليه لا حظٌ لهم في نعيم الآخرة وأن الذي لهم في الآخرة العذاب غير مخفف عنهم فيها العذاب لأن

الذي يخفف عنه فيها من العذاب هو الذي له حظ في نعيمها ولاحظ لهؤلاء لاشترائهم بالذي كان في الدنيا دنياهم بآخرتهم.

وأما قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصرهم في الآخرة أحد فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله لا بقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾البقرة: ٨٧

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾: أنزلناه إليه، وقد بيّنا أن معنى الإيتاء الإعطاء فيما مضى قبل والكتاب الذي آتاه موسى (ع) هو التوراة.

وأما قوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ فإنه يعني: وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفوا لرجل والرجل: إذا سار في أثره من ورائه.

وإنّما يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد وشريعة واحدة، لأنّ كل من بعثه الله نبيا بعد موسى (ص) إلى زمان عيسى ابن مريم فإنّما بعثه بأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها فلذلك قيل: ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾يعني على منهاجه وشريعته والعمل بما كان يعمل به.

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾

يعني بقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾أعطينا عيسى ابن مريم. البينات التي آتاه الله إياها ما أظهر على يديه من الحجج والدلالة على نبوّته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه ونحو ذلك من الآيات التي أبانت منزلته من الله ودلّت على صدقه وصحة نبوته.

﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾

أما معنى قوله: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ فإنه قوّيناه فأعنّاه.

ثم اختلف في تأويل قوله: ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ .

فقال بعضهم: روح القدس الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه ما أيّد عيسى به وهو جبريل (ع).

حدّثنا سلمة عن ابن إسحق قال حدثني عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي الحسين المكي عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله (ص) فقالوا: أخبرنا عن الروح قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني؟ قالوا: نعم.

وقال آخرون: الروح الذي أيّد الله به عيسى هو الإنجيل.

كما حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الشورى: ٥٢.

وقال آخرون: هو الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى.

وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل لأنّ الله جل ثناؤه أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ المائدة: ١١٠.

فلو كان الروح الذي أيده الله به هو الإنجيل لكان قوله: إذ أيدتك بروح القدس وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل تكرير قول لا معنى له وذلك أنه على تأويل قول من قال: معنى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ إنّما هو: إذ أيدتك بالإنجيل أي علّمتك الإنجيل وهو لا يكون به مؤيداً إلا وهو معلمه. فذلك تكرير كلام واحد من غير زيادة معنى في أحدهما على الآخر وذلك خلف من الكلام والله تعالى ذكره يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة.

وإذ كان الأمر كذلك فبين فساد قول من زعم أن الروح في هذا الموضع الإنجيل وإن كان جميع كتب الله التي أوحاها إلى رُسله روحاً منه، لأنّها تحيا بها القلوب الميتة وتنتعش بها النفوس الموالية وتهتدي بها الأحلام الضالة. وإنّما سمى الله تعالى جبريل روحاً وأضافه إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له روحاً من عنده من غير ولادة والد، ولده فسماه بذلك روحاً وأضافه إلى القدس والقدس هو الطهر كما سمى عيسى ابن مريم روحاً لله من أجل تكوينه له روحاً من عنده من غير ولادة والد. وقد بيّنا في ما مضى من كتابنا هذا أن معنى التقديس: التطهير والقدس: الطُهر من ذلك.

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل لقد آتينا موسى التوراة وتابعنا من بعده بالرُسل إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج إذ بعثناه إليكم وقويناه بروح القدس وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم تجبراً وبغياً استكبار إمامكم إبليس فكذبتم بعضا منهم وقتلتم بعضا فهذا فعلكم أبدا برسلي. وقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا ﴾ وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب فهو بمعنى الخبر.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

قال أبو جعفر: وأما الذين قرأوها «غُلّف» بتحريك اللام وضمها فإنهم تأولوها أنهم قالوا: قلوبنا غُلف للعلم بمعنى أنها أوعية. قال: والغلف على تأويل هؤلاء؛ جمع غلاف كما يجمع الكتاب كتب والحجاب حجب والشهاب شُهُب.

فمعنى الكلام على تأويل قراءة من قرأ «غُلُف» بتحريك اللام وضمّها: وقالت اليهود قلوبنا غُلف للعلم، وأوعية له ولغيره.

﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾

يعني جل ثناؤه: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بل أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم وجحودهم آيات الله وبيناته وما ابتعث به رسله وتكذيبهم أنبياءه فأخبر تعالى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك. وأصل اللعن الطرد والإبعاد والإقصاء يقال: لعن الله فلانا يلعنه لعناً وهو ملعون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾. فقال بعضهم: معناه: فقليل منهم من يؤمن، أي لا يؤمن منهم إلاّ قليل.

وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء وإنّما قيل: ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط وقد رُوي عنها سماعاً منها: مررت ببلاد قلما تنبتُ إلاّ الكراث والبصل يعني: ما تنبت غير الكراث والبصل وما أشبه ذلك من الكلام الذي ينطق به بوصف الشيء بـالقلة والمعنى فيه نفي جميعه.

*** الطبرسي:**

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣

المعنى: ثم عاد سبحانه إلى ذكر بني إسرائيل، فقال: ﴿و﴾ اذكروا ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: عهدهم. وقيل: الميثاق الأدلة من جهة العقل والشرع. وقيل: هو مواثيق الأنبياء على أممهم. والعهد والميثاق لا يكون إلاّ بالقول، فكأنه قال: أمرناهم، ووصيناهم، وأكدنا عليهم، وقلنا لهم: والله ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ ﴾ إذا حملناه على جواب القسم، وإذا حملناه على الحال، أو على

أن معناه الأمر، فكما قلناه قبل. وإذا حملناه على حذف أن، فتقديره: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده دون ما سواه من الأنداد، وبأن تحسنوا إلى ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. والإحسان الذي عليهم الميثاق بأن يفعلوه إلى الوالدين هو ما فرض على أمتنا أيضاً من فعل المعروف بهما، والقول الجميل، وخفض جناح الذل لهما، والتحنن عليهما، والرأفة بهما، والدعاء بالخير لهما، وما أشبه ذلك.

وقوله ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: وبذي القربى أن تصلوا قرابته ورحمه. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: وباليتامى أن تعطفوا عليهم بالرأفة والرحمة ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: وبالمساكين أنْ تؤتوهم حقوقهم التي أوجبها الله عليهم في أموالهم.

وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فيه عدول إلى الخطاب بعد الخبر، وإنما استجازت العرب ذلك، لأن الخبر إنما كان عمن خاطبوه بعينه، لا عن غيره. وقد يخاطبون أيضاً ثم يصيرون بعد الخطاب إلى الخير، فمثال الأول قول عنترة:

شَطَّتْ مَزارُ العاشِقين فأَصْبَحَتْ ... عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

ومثال الثاني قول كثير عزة:

أَسِيئِي بِنا، أو أَحْسِنِي، لا مَلُومَةٌ ... لَدَيْنا، ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تقَلَّتِ

وقيل معناه: قلنا لهم قولوا. واختلف في معنى قوله ﴿حُسْنًا﴾ فقيل: هو القول الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله، وأحبَّه، عن ابن عباس. وقيل: هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، عن سفيان الثوري. وقال الربيع بن أنس: قولوا للناس حسناً أي: معروفاً.

وروى جابر عن أبي جعفر الباقر (ع)، في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قال: قولوا للناس أحْسَن ما تحبون أنْ يقال لكم، فإن الله يبغض اللعّانَ السّبّاب الطعّان على المؤمنين، الفاحش المتفحش السائل الملحف، ويُحبّ الحليم العفيف المتعفف.

ثم اختلف فيه من وجه آخر، فقيل: هو عام في المؤمن والكافر على ما

روي عن الباقر (ع)، وقيل: هو خاص في المؤمن. واختلف من قال إنه عام، فقال ابن عباس وقتادة: إنه منسوخ بآية السيف وبقوله: (ع): ((قاتلوهم حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله أو يقرّوا بالجزية)). وقد روي ذلك أيضاً عن الصادق (ع). وقال الأكثرون: إنها ليست بمنسوخة، لأنه يمكن قتالهم مع حسن القول في دعائهم إلى الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾النحل: ١٢٥. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام/١٠٨]. وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [يونس/٨٧] أي: أدّوها بحدودها الواجبة عليكم، ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[الحج/٤١]. أي: أعطوها أهلها، كما أوجبها الله عليكم. روي عن ابن عباس أن الزكاة التي فرضها الله على بني إسرائيل، كانت قرباناً تهبط إليه نار من السماء فتحمله، فكان ذلك تَقبُله. ومتى لم تفعل النار به ذلك، كان غير متقبل. وروي عنه أيضاً أن المعني به طاعة الله، والإخلاص. وقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: أعرضتم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أخبر الله سبحانه عن اليهود أنهم نكثوا عهده، ونقضوا ميثاقه، وخالفوا أمره، وتولوا عنه معرضين إلاَّ من عصمه الله منهم، فوفى الله بعهده وميثاقه، ووصف هؤلاء بأنهم قليل، بالإضافة إلى أولئك.

واختلف فيه فقيل: إنه خطاب لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص)، من يهود بني إسرائيل، وذمّ لهم بنقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وتبديلهم أمر الله، وركوبهم معاصيه، وقيل: إنه خطاب لأسلافهم المذكورين في أول الآية، وإنما جمع بين التولي والإعراض، وإن كان معناه واحداً تأكيداً .

وقيل: معنى تولّوا فعلوا الإعراض. وهم معرضون أي: مستمرون على ذلك.

وفي هذه الآية دلالة على ترتيب الحقوق: فبدأ الله سبحانه بذكر حقه، وقدّمه على كل حق، لأنه الخالق المنعم بأصول النعم. ثم ثنى بحق الوالدين،

وخصهما بالمزية لكونهما سبباً للوجود، وإنعامهما بالتربية. ثم ذكر ذوي القربى، لأنهم أقرب إلى المكلف من غيرهم. ثم ذكر حق اليتامى لضعفهم، والفقراء لفقرهم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ البقرة: ٨٤

المعنى: ثم عطف سبحانه على ما تقدم من الإخبار عن اليهود بنقض المواثيق والعهود، بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾ أي: ميثاق أسلافكم الذين كانوا في زمن موسى والأنبياء الماضين، صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين، وإنما أضاف الميثاق إليهم لما كانوا أخلافاً لهم على ما سبق الكلام فيه. وقوله: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ معناه: لا يقتل بعضكم بعضاً، لأن في قتل الرجل منهم الرجل قتْلَ نفسه، إذا كانت ملتهماً واحدة ودينهما واحداً، وأهل الدين الواحد بمنزلة الرجل الواحد في ولاية بعضهم بعضاً.

قال النبي (ص): ((إنما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسَهَر)). هذا قول قتادة، وأبي العالية. وقيل: معناه لا يقتل الرجل منكم غيره فيقاد به قصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً لنفسه، لأنه كالسبب فيه.

وقوله: ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾ معناه: لا يخرج بعضكم بعضاً من دياركم بأن تغلبوا على الدار. وقيل: معناه لا تفعلوا ما تستحقون به الإخراج من دياركم، كما فعله بنو النضير. وقوله: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي: أقررتم بذلك، وأنتم شاهدون على من تقدمكم بأخذنا منهم الميثاق، وبما بذلوه من أنفسهم من القبول والالتزام. وقيل: معنى إقرارهم هو الرضاء به، والصبر عليه، كما قال الشاعر:

أَلَسْتَ كلَيْبياً إذا سِيمَ خُطّةً   أَقَرَّ كإقْرارِ الحَلِيلَةِ للْبَعْلِ

واختلف في المخاطب بقوله ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ فقيل: اليهود الذين بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص)، أيام هجرته إليهم وبّخهم الله تعالى على تضييعهم أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها، وقال لهم: ثم ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ يعني: أقرّ أولكم وسلفكم وأنتم تشهدون على إقرارهم بأخذي الميثاق عليهم، بأن لا تسفكوا دماءكم، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم، وتُصدَّقون بذلك، عن ابن عباس: وقيل: إنه خبر من الله عزَّ وجلَّ عن أوائلهم، ولكنه أخرج الخبر بذلك مخرج المخاطبة لهم على النحو الذي تقدم في الآيات، ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي: وأنتم شهود، عن أبي العالية. ويحتمل قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أمرين: أحدهما: إنّ معناه أنتم تشهدون على أنفسكم بالإقرار. والثاني: إنَّ معناه وأنتم تحضرون سفك دمائكم، وإخراج أنفسكم من دياركم، وقال بعض المفسرين: نزلت الآية في بني قريظة والنضير. وقيل: نزلت في أسلاف اليهود.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

المعنى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴾ يا معشر يهود بني إسرائيل، بعد إقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم، أنْ لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم، وبعد شهادتكم على أنفسكم بذلك أنه واجب عليكم، ولازم لكم الوفاء به ﴿ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً، كقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ النور: ٦١ أي: ليُسلّم بعضكم على بعض. وقيل: معناه تتعرضون للقتل ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ

عَلَيۡهِم ﴾ أي: متعاونين عليهم في إخراجكم إياهم، ﴿ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ ﴾أي: وأنتم مع قتلكم من تقتلون منكم إذا وجدتم أسيراً في أيدي غيركم من أعدائكم، تفدونهم، وقتلكم إياهم، وإخراجكموهم من ديارهم، حرام عليكم، كما أن تركهم أسرى في أيدي عدوهم، حرام عليكم، فكيف تستجيزون قتلهم، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم، وهما جميعاً في حكم اللازم لكم فيهم، سواء، لأن الذي حرمت عليكم من قتلهم، وإخراجهم من دورهم، نظير الذي حرمت عليكم من تركهم أسرى في أيدي عدوهم.

﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الذي فرضت عليكم فيه فرائضي، وبينت لكم فيه حدودي، وأخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقي، فتصدقون به، فتفادون أسراكم من أيدي عدوكم، ﴿ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ ﴾: وتكفرون ببعضه فتجحدونه، فتقتلون من حرمت عليكم قتله من أهل دينكم وقومكم، وتخرجونهم من ديارهم، وقد علمتم أنّ الكفر منكم ببعضه نقض منكم لعهدي وميثاقي.

واختلف فيمن عنى بهذه الآية. فروى عكرمة، عن ابن عباس أنّ قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج، فافترقوا. فكانت النضير مع الخزرج، وكانت قريظة مع الأوس. فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها. فإذا وضعت الحرب أوزارها، فدوا أسراها تصديقاً لما في التوراة. والأوس والخزرج أهل شرك، يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا قيامة ولا كتاباً، فأنبأ الله تعالى اليهود بما فعلوه. وقال أبو العالية: كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد أُخذ عليهم الميثاق أنْ لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأُخذ عليهم الميثاق إنْ أسر بعضهم بعضاً، أنْ يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم، ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار، فأخرجوهم. وقيل: ليس الذين أخرجوهم الذين فودوا، ولكنهم قوم آخرون على ملتهم، فأنبهم الله تعالى على ذلك.

وقال أبو مسلم الإصبهاني: ليس المراد بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ الآية. أنهم يخرجون، وهو محرم، ويفدون وهو واجب. وإنما يرجع ذلك إلى بيان صفة محمد (ص) وغيره. وقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اختلف في الخزي الذي خزاهم الله إياه بما سلف منهم من المعصية، فقيل: هو حكم الله الذي أنزله على نبيه محمد (ص) من أخذ القاتل بمن قتل، والقود به قصاصاً، والانتقام من الظالم للمظلوم. وقيل: بل هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على ذمتهم على وجه الذل والصغار. وقيل: الخزي الذي خزوا في الدنيا: هو إخراج رسول الله (ص) بني النضير من ديارهم لأول الحشر، وقتل بني قريظة وسبي ذراريهم، وكان ذلك خزياً لهم في الدنيا.

ثم أعلم الله سبحانه أنّ ذلك غير مكفر عنهم ذنوبهم، وأنهم صائرون بعده إلى عذاب عظيم، فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: إلى أشد العذاب الذي أعده الله لأعدائه، وهو العذاب الذي لا روح فيه مع اليأس من التخلص. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بل هو حافظ لها، ومجاز عليها. ومن قرأه بالتاء رده إلى المواجهين بالخطاب في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

ومما يسأل في هذه الآية: إن ظاهرها يقتضي صحة اجتماع الإيمان والكفر، وذلك مناف للصحيح من المذهب؟ والقول فيه: إن المعنى أنهم أظهروا التصديق ببعض الكتاب، والإنكار للبعض دون بعض، وهذا يدل على أنهم لا ينفعهم الإيمان بالبعض مع الكفر بالبعض الآخر. وفي هذه الآية تسلية لنبينا (ص) في ترك قبول اليهود قوله، وانحيازهم عن الإيمان به، فكأنه يقول: كيف يقبلون قولك، ويسلمون لأمرك، ويؤمنون بك، وهم لا يعملون بكتابهم مع إقرارهم به، وبأنه من عند الله تعالى؟!.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المعنى: أشار إلى الذين أخبر عنهم بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: ابتاعوا رياسة الدنيا ﴿ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي: رضوا بها عوضاً من نعيم الآخرة التي أعدّها الله تعالى للمؤمنين. جعل سبحانه تركهم حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله، ثمناً لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا. ثم أخبر أنهم لا حظّ لهم في نعيم الآخرة بقوله: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: لا ينقص من عذابهم، ولا يهوّن عنهم. ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي: لا ينصرهم أحد في الآخرة، فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧

المعنى: ثم ذكر سبحانه إنعامه عليهم بإرسال رسله إليهم، وما قابلوه به من تكذيبهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: أعطيناه التوراة، وأنزلنا إليه ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: أتبعنا من بعد موسى ﴿ بِٱلرُّسُلِ ﴾ رسولاً بعد رسول، يتبع الآخر الأول في الدعاء إلى وحدانية الله تعالى، والقيام بشرائعه على منهاج واحد، لأن كل من بعثه الله تعالى نبياً بعد موسى إلى زمن عيسى (ع)، فإنما بعثه بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ذلك. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: أعطيناه المعجزات والدلالات على نبوته من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته. وقال بعضهم: أراد بالبينات الإنجيل، وما فيه من الأحكام والآيات الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي: قويناه وأعنّاه بجبريل (ع)، عن قتادة،

والسدي، والضحاك، والربيع. واختلف في سبب تسمية جبرائيل (ع) روحاً على وجوه أحدها: إنه يحيي بما يأتي به من البينات الأديان، كما تحيا بالأرواح الأبدان وثانيها أنه سمي بذلك لأن الغالب عليه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة. وإنما خص بهذا الاسم تشريفاً له. وثالثها: إنه سُميَّ به وأُضيف إلى القدس، لأنه كان بتكوين الله تعالى إياه روحاً من عنده، من غير ولادة والد ولده.

وقال ابن زيد: المراد بروح القدس الإنجيل، كما سمى الله تعالى القرآن روحاً، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الشورى: ٥٢ . فكذلك سمي الإنجيل روحاً وروى الضحاك، عن ابن عباس أن الروح الاسم الذي كان عيسى (ع) يحيي به الموتى. قال الربيع هو الروح الذي نفخ فيه، فأضافه إلى نفسه تشريفاً كما قال بيت الله وناقة الله وأقوى الأقوال والوجوه قول من قال هو جبريل (ع).

وإذا قيل: لم خصّ عيسى (ع)، من بين الأنبياء، بأنه مؤيد بجبرائيل، وكل مؤيد به؟ فالقول فيه: إنه إنما خص بذلك لثبوت اختصاصه به من صغره إلى كبره، فكان يسير معه حيث سار. ولما همّ اليهود بقتله لم يفارقه حتى صعد به إلى السماء. وكان تمثل لمريم عند حملها به، وبشرها به، ونفخ فيها.

واختلف في معنى القدس، فقيل: هو الطهر. وقيل: هو البركة، عن السدي، وحكى قطرب أنهم يقولون قدس عليه الأنبياء أي: بركوا. وعلى هذا فإنه دعاء إبراهيم (ع) للحرم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾، وكقول زكريا: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ [مريم/٦]. وقيل: القدس هو الله تعالى، عن الحسن، والربيع، وابن زيد، قالوا: القدوس والقدس واحد.

وقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ خطاب اليهود، فكأنه قال: يا معشر يهود بني إسرائيل! أكلما جاءكم رسول من رسلي بغير أن تهواه أنفسكم، تعظمتم وتجبرتم وأنفتم من قبول قوله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: فكذبتم منهم بعضاً ممن لم تقدروا على قتله مثل عيسى (ع) ومحمد (ص)، وقتلتم بعضاً مثل يحيى وزكريا وغيرهما. وظاهر

الخطاب وإنْ خرج مخرج التقرير فهو بمعنى الخبر، وإنما أضاف هذا الفعل إليهم، وإنْ لم يباشروا بسهم، لأنهم رضوا بفعل أسلافهم، فأُضيف الفعل إليهم، وإن فعله أسلافهم.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

المعنى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ رجع الكلام إلى الحكاية عن اليهود، وعن سوء مقالهم وفعالهم. فالمعنى على القراءة أنهم ادعوا أنّ قلوبهم ممنوعة من القبول فقالوا: أي فائدة في إنذارك لنا، ونحن لا نفهم ما تقول، إذ ما تقوله ليس مما يفهم، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ فصلت: ٥ . وقال أبو علي الفارسي: ما يدرك به المعلومات من الحواس وغيرها من الأعضاء، إذا ذكر بأنه لا يعلم، وصف بأن عليه مانعاً من ذلك، ودونه حائلاً، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤. لما كان القفل حاجزاً وحائلاً من أن يدخله ما يدخل إذا لم يكن مقفلاً، جعل مثالاً للقلوب بأنها لا تعي ولا تفقه، وكذلك قوله: ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ﴾ الحجر: ١٥ ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي ﴾ الكهف: ١٠١ ، وقوله: ﴿ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ النمل: ٦٦ كأن شدة عناده تحملهم على الشك في المشاهدات، ودفع المعلومات.

وأما المعنى على القراءة الثانية من تحريك العين في ﴿ غُلۡفُۢ ﴾ فهو على أن المراد أن قلوبنا أوعية للعلم. وقوله: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾

رد الله سبحانه عليهم قولهم أي: ليس ذلك كما زعموا، لكن الله سبحانه قد أقصاهم وأبعدهم من رحمته، وطردهم عنها بجحودهم به ويرسله. وقيل: معنى ﴿ لَّعَنَهُمُ ﴾ طبع على قلوبهم على سبيل المجازاة لهم بكفرهم. وقوله: ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ معناه: إنّ هؤلاء الذين وصفهم قليلو الإيمان بما أنزل على نبيه محمد (ص) وإنْ كان معهم بعض الإيمان من التصديق بالله وبصفاته،

وغير ذلك مما كان فرضاً عليهم، وذلك قليل بالإضافة إلى ما جحدوه من التصديق بنبوة نبينا (ص) وبما جاء به.

والذي يليق بمذهبنا أن يكون المراد به لا إيمان لهم أصلاً، وإما وصفهم بالقليل، كما يقال: قل ما رأيت هذا قط؛ وإن جعلت قليلاً نصباً على الحال أي: يؤمنون قليلاً، فمعناه لا يؤمن به إلاَّ نفر قليل، كعبد الله بن سلام وأصحابه. وفي هذه الآية رد على المجبرة لأن هؤلاء اليهود قالوا مثل ما يقولونه من أنّ على قلوبهم ما يمنع من الإيمان، ويحول بينها وبينه، فكذّبهم الله تعالى في ذلك بأن لعنهم وذمّهم، ولو كانوا صادقين لما استحقوا اللعن والطرد، ولكان الله سبحانه قد كلّفهم ما لا يطيقونه.

*** القرطبي:**

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾تقدم الكلام في بيان هذه الألفاظ. واختلف في الميثاق هنا، فقال مكي: هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر. وقيل: هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم وهو قوله: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه.

قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال سيبويه: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ متعلق بقسَم، والمعنى وإذا استخلفناهم والله لا تعبدون؛ وأجازه المبرّد والكسائي والفراء. وقرأ أبيّ وابن مسعود «لا تعبدوا» على النهي، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال: «وقوموا، وقولوا، وأقيموا، وآتوا». وقيل: هو في موضع الحال، أي أخذنا ميثاقهم موحّدين، أو غير معاندين، قاله قطرب والمبرّد أيضاً.

وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي «يعبدون» بالياء من أسفل. وقال الفراء والزجاج وجماعة: المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يسفكوا الدماء، ثم حذفت أن والباء فارتفع الفعل لزوالهما، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ ﴾الزمر: ٦٤. قال المبرّد: هذا خطأ، لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهراً؛ تقول: وبلد قطعت، أي رُبّ بلد.

قلت: ليس هذا بخطأ بل هما وجهان صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي وأمرناهم بالوالدين إحساناً وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني ـ وهو التربية ـ من جهة الوالدين؛ ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ لقمان: ١٤ والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودّهما، على ما يأتي بيانه مفصلاً في (الإسراء).

قوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ عطف ذي القربى على الوالدين. والقربى: بمعنى القرابة وهو مصدر كالرجعى والعقبى، أي وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾اليتامى عطف أيضاً، وهو جمع يتيم؛ مثل ندَمى جمع نديم. واليتم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وحكى الماوردي أن اليتيم يقال في بني آدم في فقد الأم، والأول المعروف. وأصله الانفراد؛ يقال صبي يتيم، أي منفرد من أبيه وبيت يتيم: أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشّعر. ودرة يتيمة: ليس لها نظير. وقيل: أصله الإبطاء، فسمي به اليتيم، لأن البر يبطئ عنه. ويقالك يَتُمَ يَيْتُم يتْماً؛ مثل عظُم يعظُم. ويتم يَيْيتَم يتْماً ويتَماً؛ مثل سمِعَ يسْمع، ذكر الوجهين الفراء. وقد أيتمه الله. ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالته وحفظ ماله؛ على ما يأتي بيانه

في (النساء). وقال رسول الله (ص): «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة».

والسبابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام، وكانت في الجاهلية تدعى بالسبابة: لأنهم كانوا يسبّون بها، فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسموها المشيرة، لأنهم كانوا يشيرون بها إلى الله في التوحيد. وتسمى أيضاً بالسباحة، جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حجر وغيره؛ ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فغلبت وروى عن أصابع رسول الله (ص) أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى، ثم الوسطى أقصر منها، ثم البنصر أقصر من الوسطى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: «المساكين» عطف أيضاً، أي وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم. وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمؤاساة وتفقد أحوال المساكين والضعفاء. روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسِبه قال ـ وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يُفطر». قال ابن المنذر: وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ حسناً نصب على المصدر على المعنى، لأن المعنى ليحسن قولكم. وقيل: التقدير وقولوا للناس قولاً ذا حُسْن، فهو مصدر لا على المعنى.

قال ابن عباس: المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها وابن جريج: قولوا للناس صدقاً في أمر محمد (ص) ولا تغيروا نعته. سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر. أبو العالية: قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به. وهذا كله حض على مكارم الأخلاق؛ فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلْقاً مع البرّ والفاجر، والسني والمبدِع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن

أنه يُرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ طه: ٤٤. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وروي عن النبي (ص) أنه قال لعائشة: «لا تكوني فحاشة فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء». وقيل أراد بالناس محمداً (ص)؛ كقوله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ النساء: ٥٤ فكأنه قال: قولوا للنبي (ص) حسْناً.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ تقدم القول فيه. والخطاب لبني إسرائيل، قال ابن عطية: وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يتقبّل، ولا تنزل على ما لم يتقبّل، ولم تكن كزكاة أمة محمد (ص).

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ الخطاب لمعاصري محمد (ص) وأسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل في إعراضهم عن الحق مثلهم؛ كما قال شِنْشنة أعرفها من أخزم رجز لأبي أخزم الطائي. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. و(قليلاً) نصب على الاستثناء، والمستثنى عند سيبويه منصوب؛ لأنه مشبه بالمفعول. وقال محمد بن يزيد: هو مفعول على الحقيقة؛ المعنى استثنيت قليلاً. ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ابتداء وخبر. والإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ. وقيل: التولي بالجسم، والإعراض بالقلب، قال المهدوي ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ حال؛ لأن التولي فيه دلالة على الإعراض.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ البقرة: ٨٤

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ تقدم القول فيه. ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ المراد بنو إسرائيل، ودخل فيه بالمعنى مَن بعدهم. ﴿ لَا تَسْفِكُونَ ﴾ مثل ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ في الإعراب. وقرأ طلحة بن مصرّف وشعيب بن أبي حمزة بضم الفاء، وهي لغة، وأبو نهيك ﴿ لَا تَسْفِكُونَ ﴾ بضم التاء وتشديد الفاء وفتح

السين. والسّفك: الصب. وقد تقدم ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾ معطوف.﴿أَنفُسَكُم﴾ النفس مأخوذة من النفاسة، فنفس الإنسان أشرف ما فيه. والدار: المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال.

وقال الخليل: كل موضع حلّه قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية. وقيل: سمّيت داراً لدورها على سكانها، كما سمّي الحائط حائطاً لإحاطته على ما يحويه. و﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ من الإقرار؛ أي بهذا الميثاق الذي أخذ عليكم وعلى أوائلكم. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ من الشهادة، أي شهداء بقلوبكم على هذا. قيل: الشهادة بمعنى الحضور؛ أي تحضرون سفك دمائكم، وإخراج أنفسكم من دياركم. وقيل: المراد القصاص، أي لا يقتل أحد فيُقتل قصاصاً، فكأنه سفك دمه. وكذلك لا يزني ولا يرتد، فإن ذلك يبيح الدم. ولا يُفسد فيُنفى، فيكون قد أخرج نفسه من دياره. وهذا تأويل فيه بعد وإن كان صحيح المعنى.

وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً؛ ولا ينفيه ولا يسترّقه، ولا يدعه يسرق، إلى غير ذلك من الطاعات.

قلت: وهذا كله محرم علينا، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!

وفي التنزيل:﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾الأنعام: ٦٥ وسيأتي.

وقد روي أن عثمان بن مظعون بايع في عشرة من أصحاب رسول الله (ص) فعزموا أن يلبسوا المُسوح، وأن يهيموا في الصحراء ولا يأووا البيوت، ولا ياكلوا اللحم ولا يغشوا النساء، فبلغ ذلك النبي (ص) فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده، فقال لامرأته: «ما حديث بلغني عن عثمان»؟ وكرهت أن تفشي سرّ زوجها، وأن تكذب رسول الله (ص) فقالت يا رسول الله، إن كان قد بلغك شيء فهو كما بلغك، فقال: «قولي لعثمان أخلاف لسنتي أم على غير ملّتي إني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأغشى النساء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن

رغب عن سنتي فليس في» فرجَعَ عثمان وأصحابه عما كانوا عليه.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (أنتم) في موضع رفع بالابتداء، ولا يعرب، لأنه مضمر. وضمّت التاء من (أنتم) لأنها كانت مفتوحة إذا خاطبت واحداً مذكراً. ومكسورة إذا خاطبت واحدة مؤنّثة، فلما ثنّيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة. (هؤلاء) قال القتبيّ: التقدير يا هؤلاء.

قال النحاس: هذا خطأ على قول سيبويه، ولا يجوز هذا أقبل. وقال الزجاج: هؤلاء بمعنى الذين. (تقتلون) داخل في الصلة، أي ثم أنتم الذين تقتلون. وقيل: (هؤلاء) رفع بالابتداء، و(أنتم) خبر مقدّم، و(تقتلون) حال من أولاء. وقيل: (أنتم) نصب بإضمار أعني. وقرأ الزهري (تقتّلون) بضم التاء مشدّداً، وكذلك﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ٩١ . وهذه الآية خطاب للمواجهين لا يحتمل رده إلى الأسلاف. نزلت في بني قينقاع، والخزرج حلفاء بني قريظة. والنّضير والأوس والخزرج إخوان وقريظة والنضير أيضاً إخوان، ثم افترقوا فكانوا يقتتلون، ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم؛ فعيرهم الله بذلك فقال: ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَظَٰهَرُونَ ﴾ بمعنى تتعاونون، مشتق من الظهر، لأن بعضهم يقوي بعضاً فيكون له كالظهر.

والإثم: الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذم. والعدوان: الإفراط في الظلم

والتجاوز فيه. وقرأ أهل المدينة وأهل مكة (تظّاهرون) بالتشديد، يدغمون التاء في الظاء لقربها منها، والأصل تتظاهرون. وقرأ الكوفيون (تظهرون) مخففاً، حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها؛ وكذا ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾التحريم: ٤ وقرأ قتادة (تظاهرون عليهم) وكله راجع إلى معنى التعاون؛ ومنه: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾الفرقان: ٥٥ . وقوله:﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ﴾ التحريم: ٤ فاعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ﴾ شرط، وجوابه (تفادوهم) و(أسارى) نصب على الحال. قال أبو عبيد وكان أبو عمرو يقول: ما صار في أيديهم فهم الأسارى، وما جاء مستأسراً فهم الأسرى ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو، إنما هو كما تقول: سكارى وسكْرى. وقراءة الجماعة (أسارى) ما عدا حمزة فإنه قرأ (أسْرى) على فعْلى، جمع أسير بمعنى مأسور، والباب في تكسيره إذا كان كذلك. فعلى، كما تقول: قتيل وقتلى، وجريح وجرحى. قال أبو حاتم: ولا يجوز أسارى. وقال الزجّاج: يقال أسارى كما يقال سَكارى، وفعالى هو الأصل، وفعالى داخلة عليها. وحكي عن محمد بن يزيد قال: يقال أسير وأسراء، كظريف وظرفاء.

قال ابن فارس: يقال في جمع أسير أسرى، وأسارى، وقرئ بهما. وقيل: (أسارى) بفتح الهمزة، وليست بالعالية.

الأسير مشتق من الإسار، وهو القِد الذي يُشد به المحمل فسمّي أسيراً، لأنه يشد وثاقه؛ والعرب تقول: قد أسَر قتبة، أي شدة، ثم سمي كل أخِذ أسيراً، وإن لم يؤسر.

قوله تعالى:﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾ كذا قرأ نافع وحمزة والكسائي. والباقون (تفدوهم) من الفداء. والفداء طلب الفدية في الأسير الذي في أيديهم. قال الجوهري: «الفداء إذا كُسر أوّله يُمد ويقصر، وإذا فتح فهو مقصور؛ يقال: قم فدّى لك أبي. ومن العرب من يكسر ـ فداءً ـ بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة، فيقول: فداء لك، لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء.

ويقال: فداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه. وفداه بنفسه، وفدّاه يفديه إذا قال جعلت فَداك وتفادوْا؛ أي فدى بعضهم بعضاً». والفدية والفدى والفداء كله بمعنى واحد. وفاديت نفسي إذا أطلقته بعد أن دفعت شيئاً، بمعنى فديت، ومنه قول العباس للنبي (ص): فاديت نفسي وفاديت عقيلاً. وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين الثاني منهما بحرف الجر؛ تقول: فديت نفسي بمالي وفاديته بمالي.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ (هو مبتدأ وهو كناية عن الإخراج، و(محرّم) خبره، (إخراجهم) بدل من (هو) وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصة، والجملة التي بعده خبره، أي والأمر محرّم عليكم إخراجهم، فـ(إخراجهم) مبتدأ ثان. و(محرّم) خبره، والجملة خبر عن (هو)، وفي (محرّم) ضمير ما لم يسم فاعله يعود على الإخراج، ويجوز أن يكون (محرّم) مبتدأ، و(إخراجهم) مفعول ما لم يسمّ فاعله يسد مسد خبر (محرّم) والجملة خبر عن (هو). وزعم الفراء أن (هو) عماد، وهذا عند البصريين خطأ لا معنى له؛ لأن العماد لا يكون في أول الكلام.

قال علماؤنا: فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد. قال ابن خويزمنداد: تضمنت الآية وجوب فك الأسرى، وبذلك وردت الآثار عن النبي (ص) أنه فك الأسارى وأمر بفكهم وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع. ويجب فك الأسارى من بيت المال، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين؛ ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ابتداء وخبر. والخزي الهوان قال الجوهري: وخزيَ ـ بالكسر ـ يُخزى خزياً إذا ذل وهان. قال ابن السكّيت: وقع في بلية. وأخزاه الله، وخزي أيضاً يخزى خزاية إذا استحيا، فهو خزيان. وقوم خزايا وامرأة خزْيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ﴾ (يردون) بالياء قراءة العامة، وقرأ الحسن

(تردون) بالتاء على الخطاب. ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ تقدم القول فيه، وكذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ الآية، فلا معنى للإعادة. (يومَ) منصوب بـ(يردون).

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة (وقفينا) أي اتبعنا. التقفية: الإتباع والإرداف، مأخوذ من اتباع القفا وهو مؤخر العنق. تقول استقفيته إذا جئت من خلفه؛ ومنه سمّيت قافية الشعر. لأنها تتلو سائر الكلام. والقافية: القفا؛ ومنه الحديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم». والقفي والقفاوة: ما يدخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه. وقفوت الرجل: قذفته بفجور. وفلان قِفْوتي أي تُهمَتي. وقفوتي أي خيرتي. قال ابن دريد كأنه من الأضداد. قال العلماء: وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾ المؤمنون: ٤٤ . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى (ع). ويقال: رسُل ورسْل لغتان؛ الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم، وسواء كان مضافاً أو غير مضاف. وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويثقل إذا أضاف إلى حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي الحجج والدلالات، وهي التي ذكرها الله في (آل عمران) و(المائدة)؛ قاله ابن عباس (وأيدناه) أي قوّيناه قال النحاس: وسمي جبريل روحاً وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحاً من غير ولادة والد ولده، وكذلك سمّي عيسى روحاً لهذا. وروى غالب بن عبدالله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز وجل. وكذا قال الحسن: القدس هو الله، وروحه جبريل، وروى أبو روْق عن الضحّاك عن ابن عباس:

﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ قال: هو الاسم الذي كان يحيي بن عيسى الموتى، وقاله سعيد ابن جبير وعبيد بن عمير، وهو اسم الله الأعظم. وقيل: المراد الإنجيل، سماه روحاً كما سمى الله القرآن روحاً في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الشورى: ٥٢ والأول أظهر، والله تعالى أعلم. والقدس: الطهارة.

قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها، وحذفت الهاء لطول الاسم؛ أي بما لا تهواه. ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن إجابته احتقاراً للرسل، واستبعاداً للرسالة. وأصل الهوى الميل إلى الشيء، ويجمع أهواء، كما جاء في التنزيل، ولا يجمع أهوية، على أنهم قد قالوا في ندى أندية. وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه؛ وهذه الآية من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ (ففريقاً) منصوب بـ(كذبتم)، وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام، على ما يأتي بيانه في (سبحان) إن شاء الله تعالى.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني اليهود ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ بسكون اللام جمع أغلف؛ أي عليها أغطية. وهو مثل قوله: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ فصلت: ٥ أي في أوعية.

قال مجاهد: ﴿ غُلْفٌۢ ﴾ عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع. وحكى أهل اللغة غلّفت السيد جعلت له غلافاً، فقلْب أغلف، أي مستور عن الفهم والتمييز. وقرأ ابن عباس والأعرج وابن محيص (غُلُف) بضم اللام. قال ابن عباس: أي قلوبنا ممتلئة علماً لا تحتاج إلى علم محمد (ص) ولا غيره. وقيل: هو جمع غلاف؛ مثل خمار وخمُر، أي قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علماً كثيراً. وقيل: المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد (ص). فرد الله

تعالى عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ثم بيّن أن السبب في نفورهم عن الإيمان هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترائهم، وهذا هو الجزاء على الذين كفروا بأعظم منه وهو الإبعاد عن رحمة الله واللعن. وأصل اللعن في كلام العرب الطرد والإبعاد. ويقال للذئب: لعين. وللرجل الطريد: لعين. والمعنى أبعدهم الله من رحمته. وقيل: من توفيقه وهدايته. وقيل: من كل خير؛ وهذا عام. (فقليلاً) نعت لمصدر محذوف؛ تقديره فإيماناً قليلاً ما يؤمنون.

وقال معمَر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره؛ ويكون (قليلاً) منصوب بنزع حرف الصفة. و(ما) صلة؛ أي فقليلاً يؤمنون.

*** الشيرازي:**

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

البقرة: ٨٣ - ٨٦

تقدم ذكر ميثاق بني إسرائيل، ولكن الآيات السابقة لم تتعرض إلى تفاصيل هذا الميثاق على النحو المذكور في هذه الآيات. يشير سبحانه في هذه الآيات إلى مواد هذا الميثاق، وهي بأجمعها ــ أو معظمها ــ من المبادىء الثابتة في

الأديان الإلهية. وموجودة بشكل من الأشكال في كل الأديان السماوية.

القرآن يندّد في هذه الآيات بشدّة باليهود لنقضهم هذه العهود، ويتوعدهم نتيجة لهذا النقض بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب في الآخرة.

بنود هذا العهد الذي أقرّ به بنو إسرائيل:

١ ـ التوحيد وإخلاص العبودية لله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.

٢ ـ الإحسان إلى الوالدين: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

٣ ـ الإحسان إلى الأقارب واليتامى والفقراء ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾.

٤ ـ التعامل الصحيح مع الآخرين: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

٥ ـ إقامة الصلاة: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٦ ـ إيتاء الزكاة: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

٧ ـ عدم سفك الدماء: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾.

٨ـ عدم إخراج بني جلدتكم من ديارهم: ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾.

٩ ـ إفداء الأسرى، أي: بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾، وسيأتي ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾.

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بني إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم وتشريد بعضهم الآخر: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾. ويشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر. ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾.

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء في مواقفهم، إذيحاربون بني جلدتهم

ويخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا في الأسر: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

فهم يفادونهم استناداً إلى أوامر التوراة، بينما يشردونهم ويقتلونهم خلافاً لما أخذ الله عليهم من ميثاق: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ؟!

ومن الطبيعي أن يكون هذا الإنحراف سبباً لانحطاط الإنسان في الدنيا والآخرة:

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾.

وإنحرافات أيّة أمة من الأُمم لابدّ أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أحصاها عليهم بدقّة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الآية الأخيرة تشير إلى تخبط بني إسرائيل وتناقضهم في مواقفهم، والمصير الطبيعي الذي ينتظرهم نتيجة لذلك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

في الآيات إشارة لتناقض بني إسرائيل في مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل في ذلك: ((كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد أُخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأُخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم بعضاً أن يفادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم)).

وروي في المعنيّ بهذه الآية: ((أن قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أُسراها تصديقاً لما في التوراة، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنّة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً، فأنبأ الله تعالى اليهود بما فعلوه)).

وهكذا سقط اليهود وغيرهم من أهل العناد في مثل هذه التناقضات في حياتهم لانحرافهم عن خط العبودية التّامة لله تعالى.

والآيات الكريمة في معرض حديثها عن بني إسرائيل تطرح سنناً كونية في بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الأُمّة ورفعتها وعزتها في المنظار القرآني، اعتماد الأُمّة على قوّة الله وقدرته الأبدية وخضوعها له وحده دون سواه وخشيته وحده دون غيره: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الإجتماعي بين أفراد الأُمّة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذي القربى، ثم بعد ذلك إلى عامة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من النّاس.

إزالة التمييز الطبقي ورفع الهوة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، ومن عوامل بقاء المجتمع أيضاً ورفعته.

أما عوامل السقوط فهي عبارة عن تفكّك البنية الإجتماعية، ونشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً. ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾.

ثم الإزدواجية في الإلتزام بأحكام الله تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التي تحفظ لهم منافعهم الشخصية، ويتركوا القوانين النافعة للمجتمع ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾.

هذه هي الأسباب والعلل في تكامل وانحطاط الأُمم والحضارات في منظور القرآن.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا

كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

البقرة: ٨٧ - ٨٨

الحديث في هاتين الآيتين عن بني إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التي تطرحها الآيتان عامّة وشاملة.

تقول الآية الأُولى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ثم تذكر بعثة الأنبياء بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى... ﴿ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾، وتشير إلى بعثة عيسى ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾، لكن تعامل بني إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائماً على أساس نزعات هوى النفس ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾؟! وكان موقفهم إمّا اغتيال شخصية النّبي أو شخص النّبي: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾، لو كان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم الدنيئة اكتفوا بذلك، وإن لم يكن كافياً سفكوا دمه!!

ذكرنا في تفسير الآيات السابقة عند حديثنا عن الإزدواجية في الإلتزام بالأحكام الإلهية أن معيار الإيمان والتسليم هو الإلتزام بما لا تهوى النفس، لأن كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميولهم وأهوائهم.

ومن جانب آخر يستفاد من الآية أن القادة الإلهيين لم يكونوا يأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، وهذا هو شأن القائد لمنهج الحق. ولو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قادة لطلاّب صراط الحق. بل أتباع لطلاب الدنيا.

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النّبي الخاتم (ص): ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ والغلف جمع أغلف أي: مغلّف.

نعم، إنها كذلك مغلّفة وبعيدة عن نفوذ النور الإلهي إليها، لأن أصحابها لعنوا بعد التمادي في الكفر ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قد تشير الآية إلى اليهود الذين كذبوا الأنبياء وقتلوهم، وقد تشير إلى اليهود المعاصرين للنبي الخاتم (ص) ممّن وقف بوجه الرّسالة. لكنها على

أي حال تبين حقيقة هامّة هي: إنَّ الإنغماس في الأهواء يبعد الفرد عن الله، ويسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقاً إلى نفسه.

رسالة الأنبياء في مسيرة التاريخ:

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوماً بوجه دعوة الأنبياء، لأنها كانت تهدد مصالحهم الآنيّة التافهة، وتحريف الرّسالات الإلهية أحد السبل التي انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلك كان لابدّ من توالي الرّسل ـ على مرّ التاريخ ـ لمواصلة بقاء خط النّبوة على الأرض، ولإتمام الحجة على البشرية، قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ المؤمنون: ٤٤ هذا المفهوم عبّر عنه أمير المؤمنين علي(ع) بقوله: ((فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ)).

هدف بعثة الأنبياء على مرّ العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم الله سبحانه، ودعوتهم إلى الإلتزام بميثاق الفطرة، وإحياء دعوات الأنبياء السابقين.

ما هو روح القدس؟

للمفسرين آراء مختلفة في معنى روح القدس:

١ ـ قالوا إنّه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن الله أيّد عيسى بجبرائيل. وشاهدهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ النحل: ١٠٢.

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، والجانب الروحي في الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة ((الروح)) عليهم متناسب مع طبيعتهم، وإضافة الروح إلى ((القُدسِ)) إشارة إلى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

٢ ـ وقيل: إن ((روح القدس)) هو القوّة الغيبية التي أيّدت عيسى (ع)، وبهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيي الموتى.

هذه القوّة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف في جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. وهذا الإمداد الإلهي هو الذي يعين الإنسان في أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط في الذنوب والزلات. من هنا ورد عن رسول الله (ص قوله لحسان: ((لَنْ يَزَالَ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ مَا ذَبَبْتَ عَنَّا)) وقول بعض أئمة أهل البيت لشاعر قرأ أبياتاً ملتزمة: ((إِنَّمَا نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ عَلى لِسَانِكَ)).

٣ ـ ومن المفسرين من قال إن روح القدس هو ((الإنجيل)) ويبدو أن التّفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.

*** الفخر الرازي:**

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣

اعلم أن هذا نوع آخر من أنواع النعم التي خصهم الله بها، وذلك لأن التكليف بهذه الأشياء موصل إلى أعظم النعم وهو الجنة، والموصل إلى النعمة نعمة، فهذا التكليف لا محالة من النعم، ثم إنه تعالى بين ههنا أنه كلفهم بأشياء:التكليف الأول: قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

التكليف الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: بم يتصل الباء في قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وعلام انتصب؟ قلنا فيه ثلاثة أقوال: الأول: قال الزجاج: انتصب على معنى أحسنوا بالوالدين إحسانا.والثاني: قيل على معنى وصيناهم بالوالدين إحسانا لأن اتصال الباء به أحسن على هذا الوجه ولو كان على الأول لكان: وإلى

الوالدين كأنه قيل: وأحسنوا إلى الوالدين. الثالث: قيل: بل هو على الخبر المعطوف على المعنى الأول يعني أن تعبدوا وتحسنوا.

المسألة الثانية: إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه: أحدها: أن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده، كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود، بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى.وثانيها: أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر. وثالثها: أن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضا البتة بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضا ماليا ولا ثوابا، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى. الرابع: أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئا إلى الوالدين. الخامس: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان، فكذا الحق سبحانه وتعالى متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ البقرة: ٢٦١. السادس: أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلاّ أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله

فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى.

المسألة الثالثة: اتفق أكثر العلماء على أنه يجب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين، ويدل عليه وجوه: أحدها: أن قوله في هذه الآية: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا، ولأنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف مشعر بعلية الوصف، فدلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والدين وذلك يقتضي العموم، وهكذا الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الإسراء: ٢٣

وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ الآية، وهذا نهاية المبالغة في المنع من إيذائهما، ثم إنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] فصرح ببيان السبب في وجوب هذا التعظيم.

وثالثها: أن الله تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه كيف تلطف في دعوة أبيه من الكفر إلى الإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ مريم: ٤٢ ، ثم إن أباه كان يؤذيه ويذكر الجواب الغليظ وهو عليه السلام كان يتحمل ذلك، وإذا ثبت ذلك في حق إبراهيم عليه السلام ثبت مثله في حق هذه الأمة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ النحل: ١٢٣ .

المسألة الرابعة: اعلم أن الإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما البتة ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه، فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين.

التكليف الثالث: قوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الشافعي رضي الله عنه: لو أوصى لأقارب زيد دخل فيه الوارث المحرم وغير المحرم، ولا يدخل الأب والابن لأنهما لا يعرفان بالقريب، ويدخل الأحفاد والأجداد، وقيل: لا يدخل الأصول والفروع وقيل بدخول الكل.

المسألة الثانية: اعلم أن حق ذي القربى كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين، والاتصال بالوالدين مقدم

على الاتصال بذي القربى، فلهذا أخر الله ذكره عن الوالدين، وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال:«إن الرحم شجنة من الرحمن فإذا كان يوم القيامة يقول: أي رب إني ظلمت، إني أسيء إلي، إني قطعت. قال فيجيبها ربها: ألا ترضين أني أقطع من قطعك وأصل من وصلك، ثم قرأ ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ محمد: ٢٢، والسبب العقلي في تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة، وكلما كان أقوى كان دفعه أوجب، فلهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب.

التكليف الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اليتيم الذي مات أبوه حتى يبلغ الحلم وجمعه أيتام ويتامى، كقولهم: نديم وندامى، ولا يقال لمن ماتت أمه إنه يتيم. قال الزجاج: هذا في الإنسان، أما في غير الإنسان فيتمه من قبل أمه.

المسألة الثانية: اليتيم كالتالي لرعاية حقوق الأقارب وذلك لأنه لصغره لا ينتفع به وليتمه وخلوه عمن يقوم به يحتاج إلى من ينفعه، والإنسان قلما يرغب في صحبة مثل هذا، وإذا كان هذا التكليف شاقا على النفس لا جرم كانت درجته عظيمة في الدين.

التكليف الخامس: قوله تعالى:(والمساكين) وفيه مسائل:

المسألة الأولى: «والمساكين» واحدها مسكين، أخذ من السكون كأن الفقر قد سكنه وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه واحتجوا بقوله تعالى:﴿ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ﴾البلد: ١٦ وعند الشافعي رضي الله عنه: الفقير أسوأ حالاً، لأن الفقير اشتقاقه من فقار الظهر كأن فقاره انكسر لشدة حاجته وهو قول ابن الأنباري. واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ ﴾الكهف: ٧٩ جعلهم مساكين مع أن السفينة

كانت ملكاً لهم.

المسألة الثانية: إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى لأن المسكين قد يكون بحيث ينتفع به في الاستخدام فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى، ولأن المسكين أيضاً يمكنه الاشتغال بتعهد نفسه ومصالح معيشته، واليتيم ليس كذلك فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين.

المسألة الثالثة: الإحسان إلى ذي القربى واليتامى، لا بد وأن يكون مغايراً للزكاة لأن العطف يقتضي التغاير.

التكليف السادس: قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

قال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه: ٤٤ أمرهما الله تعالى بالرفق مع فرعون مع جلالتهما ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى، وقال لمحمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩ الآية، وأما دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ النحل: ١٢٥

وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: ٣٤ وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

التكليف السابع والثامن: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقد تقدم تفسيرهما.

واعلم أنه تعالى لما شرح أنه أخذ الميثاق عليهم في هذه التكاليف

الثمانية، بين أنه مع إنعامه عليهم بأخذ الميثاق عليهم بكل ذلك ليقبلوا فتحصل لهم المنزلة العظمى عند ربهم، تولوا وأساءوا إلى أنفسهم ولم يتلقوا نعم ربهم بالقبول مع توكيد الدلائل والمواثيق عليهم، وذلك يزيد في قبح ما هم عليه من الإعراض والتولي ؛ لأن الإقدام على مخالفة الله تعالى بعد أن بلغ الغاية في البيان والتوثق يكون أعظم من المخالفة مع الجهالة، واختلفوا فيمن المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على ثلاثة أوجه: أحدها: أنه من تقدم من بني إسرائيل. وثانيها: أنه خطاب لمن كان في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) من اليهود، يعني أعرضتم بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافكم، وثالثها: المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ من تقدم بقوله: ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ومن تأخر. ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ البقرة: ٨٤

اعلم أن هذه الآية تدل على نوع آخر من نعم الله عليهم وهو أنه تعالى كلفهم هذا التكليف وأنهم أقروا بصحته ثم خالفوا العهد فيه.

وأما قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ ففيه وجوه. أحدها: أنه خطاب لعلماء اليهود في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وثانيها: أنه خطاب مع أسلافهم، وتقديره وإذ أخذنا ميثاق آبائكم. وثالثها: أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف ومعنى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ أمرناكم وأكدنا الأمر وقبلتم وأقررتم بلزومه ووجوبه.

أما قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ ففيه إشكال، وهو الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه، وإذا كان كذلك فلا فائدة في النهي عنه.والجواب عنه من أوجه:أحدها: أن هذا الإلجاء قد يتغير كما ثبت في أهل الهند أنهم يقدرون في قتل النفس التخلص من عالم الفساد واللحوق بعالم النور والصلاح، أو كثير ممن صعب عليه الزمان، وثقل عليه أمر من الأمور، فيقتل نفسه، فإذا انتفى كون الإنسان ملجأ إلى ترك قتله نفسه صح كونه مكلفاً به، وثانيها:

المراد لا يقتل بعضكم بعضاً، وجعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به نسباً ودیناً وهو كقوله تعالى:﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ البقرة: ٥٤ . وثالثها: أنه إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنه يقتص منه، ورابعها: لا تتعرضوا لمقاتلة من يقتلكم فتكونوا قد قتلتم أنفسكم، وخامسها: لا تسفكون دماء من قوامكم في مصالح الدنيا بهم فتكونون مهلكين لأنفسكم.

أما قوله تعالى:﴿ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم ﴾ ففيه وجهان:الأول: لا تفعلوا ما تستحقون بسببه أن تخرجوا من دياركم، الثاني: المراد النهي عن إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم لأن ذلك مما يعظم فيه المحنة والشدة حتى يقرب من الهلاك.

أما قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ ففيه وجوه، أحدها: وهو الأقوى، أي: ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه وأنتم تشهدون عليها كقولك فلان مقر على نفسه بكذا أي شاهد عليها، وثانيها: اعترفتم بقبوله وشهد بعضكم على بعض بذلك لأنه كان شائعاً فيما بينهم مشهوراً. وثالثها: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق، ورابعها: الإقرار الذي هو الرضاء بالأمر والصبر عليه كأن يقال: فلان لا يقر على الضيم فيكون المعنى أنه تعالى يأمركم بذلك ورضيتم به فأقمتم عليه وشهدتم بوجوبه وصحته، فإن قيل: لم قال:﴿ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ والمعنى واحد، قلنا فيه ثلاثة أقوال:الأول: أقررتم يعني أسلافكم وأنتم تشهدون الآن يعني على إقرارهم، الثاني: أقررتم في وقت الميثاق الذي مضى وأنتم بعد ذلك تشهدون، الثالث: أنه للتأكيد.

﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ

إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾البقرة: ٨٥

أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ففيه إشكال لأن قوله:«أنتم» للحاضرين و«هؤلاء» للغائبين فكيف يكون الحاضر نفس الغائب؟ وجوابه من وجوه، أحدها: تقديره ثم أنتم يا هؤلاء، وثانيها: تقديره ثم أنتم أعني هؤلاء الحاضرين، وثالثها: أنه بمعنى الذي وصلته «تقتلون» وموضع تقتلون رفع إذا كان خبراً ولا موضع له إذا كان صلة. قال الزجاج: ومثله في الصلة قوله تعالى:﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ طه: ١٧ يعني وما تلك التي بيمينك، ورابعها: هؤلاء تأكيد لأنتم، والخبر «تقتلون»، وأما قوله تعالى: ﴿ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فقد ذكرنا فيه الوجوه، وأصحها أن المراد يقتل بعضكم بعضاً، وقتل البعض للبعض قد يقال فيه إنه قتل للنفس إذ كان الكل بمنزلة النفس الواحدة وبينا المراد بالإخراج من الديار ما هو.

أما قوله تعالى:﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن التظاهر هو التعاون، ولما كان الإخراج من الديار وقتل البعض بعضاً مما تعظم به الفتنة واحتيج فيه إلى اقتدار وغلبة بين الله تعالى أنهم فعلوه على وجه الاستعانة بمن يظاهرهم على الظلم والعدوان.

المسألة الثانية: الآية تدل على أن الظلم كما هو محرم فكذا إعانة الظالم على ظلمه محرمة، فإن قيل: أليس أن الله تعالى لما أقدر الظالم على الظلم وأزال العوائق والموانع وسلط عليه الشهوة الداعية إلى الظلم كان قد أعانه على الظلم، فلو كانت إعانة الظالم على ظلمه قبيحة لوجب أن لا يوجد ذلك من الله تعالى، والجواب: أنه تعالى وإن مكن الظالم من ذلك فقد زجره عن الظلم بالتهديد والزجر، بخلاف المعين للظالم على ظلمه فإنه يرغبه فيه ويحسنه في عينه ويدعوه إليه فظهر الفرق.

المسألة الثالثة: الآية لا تدل على أن قدر ذنب المعين مثل قدر ذنب

المباشر، بل الدليل دل على أنه دونه لأن الإعانة لو حصلت بدون المباشرة لما أثرت في حصول الظلم ولو حصلت المباشرة بدون الإعانة لحصل الضرر والظلم، فعلمنا أن المباشرة أدخل في الحرمة من الإعانة.

أما قوله تعالى:﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: وفي أسارى قولان: أحدهما: أنه جمع أسرى كسكرى وسكارى.والثاني: جمع أسير، وفرق أبو عمرو بين الأسرى والأسارى، وقال: الأسارى الذين في وثاق، والأسرى الذين في اليد، كأنه يذهب إلى أن أسارى أشد مبالغة.

المسألة الثانية: جمهور المفسرين قالوا: المراد من قوله: ﴿ تُفَٰدُوهُمْ بِٱلْإِثْمِ ﴾وصف لهم بما هو طاعة وهو التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ليعودوا إلى كفرهم.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: الذين أخرجوا والذين فودوا فريق واحد، وذلك أن قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج، فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وقريظة مع الأوس. فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فعيرتهم العرب وقالوا: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون: أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، ولكنا نستحي أن نذل حلفاءنا، وقال آخرون: ليس الذين أخرجوهم فودوا ولكنهم قوم آخرون فعابهم الله عليه.

أماقوله تعالى:﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ ففي قوله:﴿ وَهُوَ ﴾ وجهان: الأول: أنه ضمير القصة والشأن كأنه قيل والقصة محرم عليكم إخراجهم، الثاني: أنه كناية عن الإخراج أعيد ذكره توكيداً لأنه فصل بينهما بكلام فموضعه على هذا رفع كأنه قيل وإخراجهم محرم عليكم، ثم أعيد ذكر إخراجهم مبينا للأول.

أما قوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

فقد اختلف العلماء فيه على وجهين. أحدهما: إخراجهم كفر، وفداؤهم

إيمان، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج، ولم يذمهم على الفداء، وإنما ذمهم على المناقضة إذ أتوا ببعض الواجب وتركوا البعض، وقد تكون المناقضة أدخل في الذم لا يقال هب أن ذلك الإخراج معصية، فلم سماها كفراً مع أنه ثبت أن العاصي لا يكفر، لأنا نقول لعلهم صرحوا أن ذلك الإخراج غير واجب مع أن صريح التوراة كان دالاً على وجوبه.وثانيهما: المراد منه التنبيه على أنهم في تمسكهم بنبوة موسى (عليه السلام) مع التكذيب بمحمد (صلى الله عليه وسلم) مع أن الحجة في أمرهما على سواء يجري مجرى طريقة السلف منهم في أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض والكل في الميثاق سواء.

أما قوله تعالى: ﴿ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ فأصل الخزي الذل والمقت. يقال: أخزاه الله، إذا مقته وأبعده، وقيل: أصله الاستحياء، فإذا قيل: أخزاه الله كأنه قيل: أوقعه موقعا يستحيا منه، وبالجملة فالمراد منه الذم العظيم، واختلفوا في هذا الخزي على وجوه. أحدها: قال الحسن: المراد الجزية والصغار، وهو ضعيف لأنه لا دلالة على أن الجزية كانت ثابتة في شريعتهم، بل إن حملنا الآية على الذين كانوا في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم) صح هذا الوجه، لأن من جملة الخزي الواقع بأهل الذمة أخذ الجزية منهم. وثانيها: إخراج بني النضير من ديارهم، وقتل بني قريظة وسبي ذراريهم، وهذا إنما يصح لو حملنا الآية على الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم، وثالثها: وهو الأولى أن المراد منه الذم العظيم والتحقير البالغ من غير تخصيص ذلك ببعض الوجوه دون بعض والتنكير في قوله:«خزي» يدل على أن الذم واقع في النهاية العظمى.

أما قوله: ﴿ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾ ففيه سؤال وهو أن عذاب الدهرية الذين ينكرون الصانع يجب أن يكون أشد من عذاب اليهود، فكيف قال في حق اليهود:﴿ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ والجواب: المراد منه أنه

أشد من الخزي الحاصل في الدنيا، فلفظ «الأشد» وإن كان مطلقاً إلاّ أن المراد أشد من هذه الجهة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾: تهديد شديد وزجر عظيم عن المعصية وبشارة عظيمة على الطاعة، لأن الغفلة إذا كانت ممتنعة عليه سبحانه مع أنه أقدر القادرين وصلت الحقوق لا محالة إلى مستحقيها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

البقرة: ٨٦

اعلم أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ولذات الآخرة ممتنع غير ممكن والله سبحانه مكن المكلف من تحصيل أيهما شاء وأراد، فإذا اشتغل بتحصيل أحدهما فقد فوت الآخر على نفسه، فجعل الله ما أعرض اليهود عنه من الإيمان بما في كتبهم وما حصل في أيديهم من الكفر ولذات الدنيا كالبيع والشراء، وذلك من الله تعالى في نهاية الذم لهم لأن المغبون في البيع والشراء في الدنيا مذموم حتى يوصف بأنه تغير في عقله فبأن يذم مشتري متاع الدنيا بالآخرة أولى.

أما قوله تعالى: ﴿أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ﴾ ففيه وجهان: الأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة يعني أن أحداً لا يدفع هذا العذاب عنهم ولا هم ينصرون على من يريد عذابهم، ومنهم من حمله على نفي النصرة في الدنيا، والأول أولى لأنه تعالى جعل ذلك جزاء على صنيعهم، ولذلك قال: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ وهذه الصفة لا تليق إلا بالآخرة، لأن عذاب الدنيا وإن حصل فيصير كالحدود التي تقام على المقصر ولأن الكفار قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا

﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧

اعلم أن هذا نوع آخر من النعم التي أفاضها الله عليهم ثم إنهم قابلوه بالكفر والأفعال القبيحة، وذلك لأنه تعالى لما وصف حال اليهود من قبل بأنهم يخالفون أمر الله تعالى في قتل أنفسهم وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وبين أنهم بهذا الصنيع اشتروا الدنيا بالآخرة، زاد في تبكيتهم بما ذكره في هذه الآية. أما الكتاب فهو التوراة آتاه الله إياها جملة واحدة، روي عن ابن عباس أن التوراة لما نزلت أمر الله تعالى موسى بحملها فلم يطق ذلك، فبعث الله لكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله على موسى فحملها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قفينا، أتبعنا مأخوذ من الشيء يأتي في قفاه الشيء، أي بعد نحو ذنبه من الذنب، ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ المؤمنون: ٤٤.

المسألة الثانية: روي أن بعد موسى (عليه السلام) إلى أيام عيسى (عليه السلام) كانت الرسل تتواتر ويظهر بعضهم في أثر بعض، والشريعة واحدة إلى أيام عيسى (عليه السلام)، فإنه صلوات الله عليه جاء بشريعة مجددة، واستدلوا على صحة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ فإنه يقتضي أنهم على حد واحد في الشريعة يتبع بعضهم بعضاً فيها، قال القاضي: إن الرسول الثاني لا يجوز أن يكون على شريعة الأول حتى لا يؤدي إلى تلك الشريعة بعينها من غير زيادة ولا نقصان، مع أن تلك الشريعة محفوظة يمكن معرفتها بالتواتر عن الأول، لأن الرسول إذا كان هذا حاله لم يمكن أن يعلم من جهة إلاّ ما كان قد علم من قبل أو يمكن أن يعلم من قبل، فكما لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً لا شريعة معه أصلاً، تبين العقليات لهذه العلّة، فكذا القول في مسألتنا: فثبت أنه لا بد في الرسل الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام أن يكونوا قد أتوا بشريعة جديدة إن كانت الأولى محفوظة أو محيية لبعض ما اندرس من الشريعة الأولى. والجواب: لم لا يجوز أن يكون المقصود من بعثة

هؤلاء الرسل تنفيذ تلك الشريعة السالفة على الأمة أو نوعاً آخر من الألطاف لا يعلمها إلا الله، وبالجملة فالقاضي ما أتى في هذه الدلالة إلا بإعادة الدعوى، فلم قال: إنه لا يجوز بعث هؤلاء الرسل إلا لشريعة جديدة أو لإحياء شريعة اندرست وهل النزاع وقع إلا في هذا؟

المسألة الثالثة: هؤلاء الرسل هم: يوشع، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان وشعياء، وأرمياء، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ففيه:

أن السبب في أن الله تعالى أجمل ذكر الرسول ثم فصل ذكر عيسى لأن من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له، وليس كذلك عيسى، لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى (عليه السلام).

أما قوله تعالى: ﴿أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في الروح على وجوه. أحدها: أنه جبريل (عليه السلام) وإنما سمي بذلك لوجوه. الأول: أن المراد من روح القدس الروح المقدسة كما يقال: حاتم الجود ورجل صدق فوصف جبريل بذلك تشريفاً له وبياناً لعلو مرتبته عند الله تعالى.الثاني: سمي جبريل (عليه السلام) بذلك لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء، والمكلفون في ذلك يحيون في دينهم. الثالث: أن الغالب عليه الروحانية وكذلك سائر الملائكة غير أن روحانيته أتم وأكمل. الرابع: سمّي جبريل (عليه السلام) روحاً، لأنه ما ضمته أصلاب الفحول وأرحام الأمهات. وثانيها: المراد بروح القدس الإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الشورى: ٥٢ وسمي به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله. وثالثها: أنه الاسم الذي كان يحيي به عليه السلام الموتى، عن ابن عباس وسعيد بن جبير. ورابعها: أنه

الروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى فنسب روح عيسى عليه السلام إلى نفسه تعظيماً له وتشريفاً، كما يقال: بيت الله وناقة الله، عن الربيع، وعلى هذا فالمراد به الروح الذي يحيا به الإنسان.

واعلم أن إطلاق اسم الروح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى الاسم الأعظم مجاز لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان ومنافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلاّ أنه سمي كل واحد من هذه الثلاثة بالروح على سبيل التشبيه من حيث أن الروح كما أنه سبب لحياة الرجل، فكذلك جبريل (عليه السلام) سبب لحياة القلوب بالعلوم، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها، والاسم الأعظم سبب لأن يتوسل به إلى تحصيل الأغراض إلا أن المشابهة بين مسمى الروح وبين جبريل أتم لوجوه. أحدها: لأن جبريل (عليه السلام) مخلوق من هواء نوراني لطيف فكانت المشابهة أتم، فكان إطلاق اسم الروح على جبريل أولى. وثانيها: أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه. وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني قويناه، والمراد من هذه التقوية الإعانة وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه السلام حقيقة وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز، فكان ذلك أولى، ورابعها: وهو أن اختصاص عيسى بجبريل (عليهما السلام) من آكد وجوه الاختصاص بحيث لم يكن لأحد من الأنبياء (عليهم السلام) مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها وإنما ولد عيسى (عليه السلام) من نفخة جبريل (عليه السلام) وهو الذي رباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فهو نهاية الذم لهم، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه. وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم

كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم.

أما قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فلقائل أن يقول: هلا قيل وفريقا قتلتم؟ وجوابه من وجهين: أحدهما: أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب. الثاني: أن يراد فريقا تقتلونهم بعد لأنكم حاولتم قتل محمد (صلى الله عليه وسلم) لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. وقال (عليه السلام) عند موته:«ما زالت أكلة خيبر تعاودني. فهذا أوان انقطاع أبهري» والله أعلم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

أما الغلف ففيه ثلاثة أوجه. أحدها: أنه جمع أغلف والأغلف هو ما في غلاف أي قلوبنا مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها، وثانيها: روى الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غلف بالعلم ومملوءة بالحكمة فلا حاجة معها بهم إلى شرع محمد عليه السلام، وثالثها: غلف أي كالغلاف الخالي لا شيء فيه مما يدل على صحة قولك. أما المعتزلة فإنهم اختاروا الوجه الأول، ثم قالوا: هذه الآية تدل على أنه ليس في قلوب الكفار ما لا يمكنهم معه الإيمان، لا غلاف ولا كن ولا سد على ما يقوله المجبرة لأنه لو كان كذلك لكان هؤلاء اليهود صادقين في هذا القول، فكان لا يكذبهم الله بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ لأنه تعالى إنما يذم الكاذب المبطل لا الصادق المحق المعذور، قالوا: وهذا يدل على أن معنى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾الكهف: ٥٧ وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾يس: ٨ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾يس: ٨ - ٩ ليس المراد كونهم ممنوعين من الإيمان، بل المراد إما منع الألطاف أو تشبيه حالهم في إصرارهم على الكفر بمنزلة المجبور على الكفر. قالوا: ونظير ذم الله تعالى اليهود على هذه المقالة ذمه تعالى الكافرين على مثل هذه المقالة وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فصلت: ٥

ولو كان الأمر على ما يقوله المجبرة لكان هؤلاء القوم صادقين في ذلك، ولو كانوا صادقين لما ذمهم بل كان الذي حكاه عنهم إظهارا لعذرهم ومسقطا للومهم.

واعلم أنا بينا في تفسير الغلف وجوها ثلاثة فلا يجب الجزم بواحد منها من غير دليل.

أما قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

ففي تفسيره ثلاثة أوجه. أحدها: أن القليل صفة المؤمن، أي لا يؤمن منهم إلاّ القليل عن قتادة والأصم وأبي مسلم. وثانيها: أنه صفة الإيمان، أي لا يؤمنون إلا بقليل مما كلفوا به لأنهم كانوا يؤمنون بالله، إلا أنهم كانوا يكفرون بالرسل. وثالثها: معناه لا يؤمنون أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً كما يقال: قليلاً ما يفعل بمعنى لا يفعل البتة. قال الكسائي: تقول العرب: مررنا بأرض قليلاً ما تنبت، يريدون لا تنبت شيئاً. والوجه الأول أولى لأنه نظير قوله: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ النساء: ١٥٥ ، ولأن الجملة الأولى إذا كان المصرح فيها ذكر القوم فيجب أن يتناول الاستثناء بعض هؤلاء القوم.

*** الطباطبائي:**

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، الآية في بديع نظمها تبتدئ أولاً بالغيبة، وتنتهي إلى الخطاب حيث تقول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾، ثم إنها تذكر أولاً الميثاق وهو أخذ للعهد، ولا يكون إلاّ بالقول، ثم تحكي ما أخذ عليه الميثاق، فتبتدئ فيه بالخبر، حيث تقول ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وتختتم بالإنشاء حيث تقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ إلخ. ولعل الوجه في ذلك كله أن الآيات المتعرضة لحال بني إسرائيل لما بدأت بالخطاب، لمكان اشتمالها على التقريع والتوبيخ وجرت عليه كان سياق الكلام

فيها الخطاب ثم لما تبدل الخطاب بالغيبة بعد قصة البقرة لنكتة داعية إليها، كما مرّ حتى انتهت إلى هذه الآية، فبدأت أيضاً بالغيبة لكن الميثاق حيث كان بالقول وبني على حكايته حكي بالخطاب فقيل: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ألخ، وهو نهي، في صورة الخبر. وإنما فعل ذلك دلالة على شدة الإهتمام به، كأن الناهي لا يشك في عدم تحقق ما نهى عنه في الخارج، ولا يرتاب في أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهي عن نهيه، فلا يوقع الفعل قطعاً وكذا قوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، كل ذلك أمر، في صورة الخبر.

ثم إن الانتقال إلى الخطاب من قبل الحكاية أعطى فرصة للإنتقال إلى أصل الكلام، وهو خطاب بني إسرائيل، لمكان الاتصال في قوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إلخ وانتظم بذلك السياق.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾، أمر أو خبر بمعنى الأمر والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين، أو التقدير: وتحسنون بالوالدين إحساناً إلخ، وقد رتب موارد الإحسان، أخذاً من الأهم والأقرب، إلى المهم والأبعد فقرابة الإنسان أقرب إليه من غيرهم، والوالدان وهما الأصل الذي تتكي عليه، وتقوم به شجرة وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام، وفي غير القرابة أيضاً اليتامى أحق بالإحسان لصغرهم ولفقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين. هذا. وقوله: ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ اليتيم من مات أبوه، ولا يقال لمن ماتت أمه يتيم. وقيل اليتيم في الإنسان، إنما تكون، من جهة الأب وفي غير الإنسان من سائر الحيوان، من جهة الأم وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، جمع مسكين وهو الفقير العادم الذليل. وقوله تعالى: ﴿ حُسْنًا ﴾، مصدر بمعنى الصفة، جيء به للمبالغة. وفي بعض القراءات ﴿ حُسْنًا ﴾، بفتح الحاء والسين، صفة مشبهة، والمعنى قولوا للناس قولاً حسناً، وهو كناية عن حسن المعاشرة مع الناس، كافرهم،

ومؤمنهم ولا ينافي حكم القتال، حتى تكون آية القتال ناسخة له لأن مورد القتال، غير مورد المعاشرة . فلا ينافي الأمر بحسن المعاشرة كما أن القول الخشن في مقام التأديب لا ينافي حسن المعاشرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، خبر في معنى الإنشاء، نظير ما مرّ في قوله: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، والسفك الصب .

قوله تعالى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾، التظاهر هو التعارف، والظهير العون، مأخوذ من الظهر، لأن العون يلي ظهر الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ﴾، الضمير للشأن والقصة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي ما هو والفرق بين الإخراج والفدية حيث أخذتم بحكم الفدية وتركتم حكم الإخراج وهما جميعاً في الكتاب ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾، التقفية الإتباع، وإتيان الواحد قفا الواحد .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، سيأتي الكلام فيه في سورة آل عمران.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾، جمع أغلف من الغلاف، أي قلوبنا محفوظة تحت لفائف وأستار وحجب، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ [حم سجدة/٥]، وهو كناية، عن عدم إمكان استماع ما يدعون إليه.

في الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ الآية. قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم.

وفي الكافي أيضاً عن الصادق (عليه السلام) قال: قولوا للناس ولا تقولوا إلاّ خيراً، حتى تعلموا ما هو.

وفي المعاني عن الباقر (عليه السلام) قال: قولوا للناس أحسن ما تحبون

أن يقال لكم، فإن الله عزّ وجل يبغض السباب، اللعان، الطعان على المؤمنين، الفاحش المفحش، السائل ويحب الحيي الحليم العفيف المتعفف .

أقول: وروى مثل الحديث في الكافي، بطريق آخر عن الصادق (عليه السلام)، وكذا العيّاشي عنه (عليه السلام) ومثل الحديث الثاني، في الكافي عنه. ومثل الحديث الثالث العيّاشي عن الباقر (عليه السلام) وكأن هذه المعاني، اُستفيدت من إطلاق الحسن، عند القائل وإطلاقه من حيث المورد.

وفي تفسير العيّاشي، عن الصادق (عليه السلام) قال: إن الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)، بخمسة أسياف فسيف على أهل الذمة. قال الله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾، نزلت في أهل الذمة، ثم نسختها أخرى قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾التوبة: ٢٩ ، الحديث.

أقول: وهو منه (عليه السلام) أخذ بإطلاق آخر للقول وهو شموله للكلام، ولمطلق التعرض. يقال لا تقل له إلاّ حسناً وخيراً أي لا تتعرض له إلاّ بالخير والحسن، ولا تمسسه إلاّ بالخير والحسن. هذا إن كان النسخ في قوله: (عليه السلام)، هو النسخ بالمعنى الأخص وهو المصطلح ويمكن أن يكون المراد، هو النسخ بالمعنى الأعم على ما سيجيء في قوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَونُنْسِها﴾ [البقرة/٢٠٦]، وهو الكثير في كلامهم (عليهم السلام)، لتكون هذه الآية، وآية القتال، غير متحدتين مورداً.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

يبدو ولله الحمد أن الآيات الكريمات التي تقرّع بني إسرائيل وتذمهم قد أجمع عليها المفسرون من كافة المشارب الفكرية والمذاهب الإسلامية، فإننا حتى الآن لم نجد أي اختلاف جوهري بين هؤلاء العلماء المفسرين لكتاب الله في هذه الفقرة التفسيرية التي تتحدث عن أعند خلق الله اليهود.

ومع هذا فقد تميّز كل من الشيرازي والقرطبي وفضل الله وبشكل أوضح الرازي. فجزاهم الله خير الجزاء.